في وصف حالتنا
٤

خذ نفسا عميقا وانتظر

(حكايات من إحتلال غير عادي)

امتياز دياب

ايار/ مايو ٢٠٠٢

خذ نفساً عميقاً وانتظر... هناك حاجز

«شوفي معبر بيتونيا. هذا حاجز بيتونيا التجاري، عملوه من أسبوعين، قال علشان يْسَهلوا دخول المواد الغذائية. طبعاً هذا شارع رئيسي، بس أغلق وأعيد افتتاحه تحت شعار التسهيلات»

.

سارت السيارة بنا صاعدة تلالا ترابية مليئة بالحجارة. تدور وتلف لتفاديها .. الغبار تحول إلى سحب جافة يضيق بها التنفس. «لأ، وإن جاب واحد بضاعة بدُه(يريد) ينزل، يقطع شارع حولوه لخندق أبو أربع أو خمس أمتار، وبعدين، إرجع حَمِّل على سيارة ثانية ، ساعات بتروح، أيام بتروح، لوينته ؟ لوينته ؟ (إلى متى ؟ إلى متى ؟) »

قال لي السائق:« هذه «رافات» (اسم قرية)وهذه قوى الأمن الوقائي وراء الجبل مباشرة، طبعاً كانت الناس تطفش بين الجبال فعملوا شيك (أسلاك شائكة) ثلاث بتات (طبقات) وسكروا الطريق، وحطوا دبابة، ولا واحد يقدر يطلع إلا عبر الحاجز»

نصل حاجز قلنديا. ننتظر وراء طابور طويل من السيارات المنتظرة لكي يناديهم الجندي. ينادي الواحد بعد الأخر : هوية؟ ..من أين أنت ؟ إلى أين تذهب؟ وعندما يتعب الجندي أو يمل

امتياز دياب ، صحافية ومصورة فلسطينية تعيش في سويسرا. نشرت مقالات في «الكرمل» عن الانتفاضة الأولى، ما بين عامي ١٩٨٨ ـ ١٩٩٣. في الريبورتاج الحالي تصف بلغة الحياة اليومية، بلسان الناس وأصواتهم، بعض ما يعيشه الفلسطينيون الآن وهنا.

يعود إلى خيمته العسكرية على تلة صخرية، أحيانا يرسل من يحل محله، وأحيانا يجلسون ويتبادلون الحديث.

كنا في الوسط، وعندما فرحنا بوصولنا إلى المقدمة، اكتشفنا أننا كنا أمام صخرة كبيرة، وطريق الرام إلى اليمين وطريق رام الله إلى اليسار. حاولت الحديث مع السائق في جهة اليسار لكي يسمح لنا بتجاوز سيارته، فقد وجدنا أنفسنا في طريق مسدود .. قال:«أنا بستنا (انتظر) من ثلاث أرباع الساعة، وإذا بمرّقكم (اعطيكم حق العبور) بزعلوا الجماعة اللي ورانا، ارجعوا أحسن» .

شاب يحاول تنظيم الصفوف، ويحاول الحفاظ على النظام، فيشير لنا أن نعود، نقول له إن طريق العودة مسدود. يقترب، يقول:« حاجز قلنديا أتعس (اسوأ) فلو سمحتم؟ »، سائق مجاور يقول:«السيارة اللي قدامنا محملة (حمولتها) كنادر (أحذية) والجندي عم يفتحها واحدة واحدة .. مضلش عليه (لم يبق) غير يقيسهم». يضحك الشاب ..ضحكنا معه ، تدمع عيناه ، يمر بائع بوظة يشعل الفوضى ليكسب بعض الشواقل.

سمتريلا(سيارة ضخمة) يأتي دورها، تتقدم بثقل، نشير إلى سائقها كي يدعنا نمر، فيرد علينا انه سيمر فوق أي سيارة تحاول تجاوزه .. نتراجع أمام نظراته ونقرر أن نأكل البوظة . نزلت من السيارة، مع البوظة، وتوجهت إلى سيارة في المؤخرة. سالتهم من أين هم ؟ قالوا :«نحن من البرازيل» ...أتوا للاستثمار وهاهم أضاعوا مليون دولار، قضوا العمر في تجميعها. ثم أضاف حسن :« هذا مش بلد، هذه كانت مصيدة. يسألني احمد الذي يتكلم ونصف كلامه باللغة البرتغالية، وأنت ماذا تفعلين هنا ؟ » قلت أني اجمع القصص والحكايات . يقول لي:« إحنا كلنا قصة ذل ومهانة .. يقاطعنا شخص يطلب من حسن أن يسمح له بتجاوزه، فوالدته بالسيارة مريضة قال له: إذا مررت أنت وأمك، أنا الذي سأفقع وأموت هنا. » تراجع الشاب مقهوراً دون نقاش .

السمتريلا الكبيرة تتقدم، يقول الجندي للسائق أن يعود من الناحية الأخرى. استفسر عن السبب. يقول لي منظم السير: هذا المعبر ليس معبرا تجاريا. قلت بأنه لا ينقل بضاعة. يقول الجندي لا يهم إذا كانت السيارة محملة بالبضاعة أم لا. المهم هذه سيارة تجارية كبيرة وليست سيارة خاصة.

وتعود السمتريلا تحشر السيارات لمدة نصف ساعة حتى يتمكن من إدارة سيارته العملاقة، التي كان علينا أن ندور جميعاً لكي نمكنه من الدوران. حاولنا في هذه الحركة أن نعبر، فدرنا حول الصخور، ووجدنا أنفسنا أمام الحاجز تماماً. فرحة لم تتم. أغلق الجندي الحاجز.

سألنا لماذا أغلق الحاجز ؟ فرد منظم السير، اسمه عبد الله، :« لأنه جحش».

ارتفع زعيق السيارات، والأبواق، والهدير بلا جدوى، فالجندي قرر عقابنا بسبب عدم النظام، على حد تعبير عبد الله، الذي قال يجب تنظيم السير دون تدخل الجنود. مرت فتاة تضع منديلا على انفها لتحمي رئتيها من الدخان المنبعث من ثلاثمائة سيارة هادرة على الأقل .

استمر الحال عشرين دقيقة، ثم جاء الجندي وفتح الحاجز. طلب من ركاب السيارة في المقدمة النزول، وفتح الباب الخلفي للسيارة. نزلت عروس بان فستانها الأبيض تحت عباءة بنية (تلبسها العروس لتذهب بها إلى بيت العريس) وكأن قدرة سحرية مستنا جميعاً، كفت السيارات عن الزعيق، والهدير، اشرأبت الأعناق لتتفرج على حاجيات العروس بصمت وحزن وحنق.

نظرت إلى جندي يقف على تلة شاهراً سلاحه. جندي آخر يستخدم منظارا ليتفحصنا. التقطت صورة للجندي، وصورة للعروس، وصورة أخرى من بعيد .

اكتفى الجندي بفتح حقيبة واحدة. أشار للركاب بالعودة إلى السيارة، التي تختفي تاركة مشاعر حنق متضامنة. يرمقني عبد الله قائلا: « لو كان معها حزام متفجرات، أو حدا أعطاها حزام متفجرات، فكرك بتفجر حالها ؟ الناس كلهم شافوا حاجاتها .. يمسح دمعه. يبتعد. يجلس على حجر مقلوع من مكانه . »

فهمت أن عبد الله لا يريد الحديث مع احد. ولن ينظم السير وسيتركنا لزعل الجندي منّا. ذهبت وحشرت نفسي لكي أرى الحاجز. رأيت سيارة إسعاف. لم تمكث السيارة طويلاً. بعد تفتيش سريع عبرت الحاجز، ثم اختفت.

شاب صغير في السابعة عشرة من العمر، يعتلي دراجة نارية، يرتدي ملابس سوداء، وعلى رأسه قبعة واقية. عيناه خضراوان. خلع قبعته فكشف عن شعر اسود مرّجل على آخر موضة. بدا قليل الصبر، ويتأفف من الانتظار. كان الدور لنا، ورغم معرفته التامة بذلك احتل المكان أمامنا، الشيء الذي أثار غضب السائق، فصرخ به ليخلي مكانه. نظر الشاب نحونا وردد: « يلعن هيك بلد باجري (برجلي) »، رأينا الشر في عينيه فسكتنا. اعتبر تفادي الشر من طرفنا فيزا للدخول، بدا بتسخين محرّك الدراجة، ناثراً غباراً كثيفاً ثم تحرك نحو شارع أزالت جنازير الدبابات اسفلته.

أبو ممدوح السائق تعوّذ من الشيطان وقال للشاب: «يا ولد ! لو الله فتحها بوجهي واجاني ولد كان ابني اكبر منك .. زيح من خلقتي (أي اغرب عن وجهي) »، نظر الفتى بعينيه الخضراوين وقد زاد اخضرارهما بفعل الغضب ثم قال بثبات: « مش راح أزيح.. وبلطوا البحر». وبدل أن يبلط أبو ممدوح البحر، نزل من السيارة ووقف قبالة وجه الفتى قائلا: « اسمع يا روح أمك، مش ناقصنا واحد مثلك تزيد الدنيا وساخة، والله، والله، قسما عظما، إذا ما زحت غير كف ألِوْقَلكْ هالبوز (اشوه وجهك) شايف حالك».

في الأثناء، كفيف يحاول عبور الحاجز سيراً على الأقدام، ولكن من طرف السيارات وليس من طرف المشاة، جاء احد الجنود وقابل الكفيف امسك بذراعه وعبر به الحاجز بكل حنان مما أثار غيظ الجميع، الذين تمتموا بجمل مختلفة مثل: « يا عيني قاتلته الرحمة ومذوب قلبه الحنان». أو » شوف كنه في كاميرا تلفزيون وعم بمثل قدامها، يعني عندهم إنسانية، وبمرقوا العميان» .

مر الكفيف متحسساً طريقه بعصاه. لحظة تعلّق أنظارنا بالمشهد، ركب الفتى الوسيم دراجته النارية وطار بها في لحظة بعد أن وقف أمام الجندي وأراه هويته، ثم ابتعد غائباً ونحن ننظر

بحسد. أبو ممدوح الذي شعر بأنه غبي غضب أكثر. وقال: « طيب وبعدين بدي أروح الحمام، يا خلق الله». أبو عبد الله يضحك ويقول: « هاي عن جد مصيبة المصائب . »

صدر صوت من الراديو يقول: « أوقفت فتاة قرب طولكرم، كانت تريد تفجير نفسها..».

أبو عبد الله سمع الخبر وضرب كفا بآخر وقال :« يا زلمة (يا رجل) شباب بتفجر نفسها، لكن البنات ليش!؟ وهاي إحنا مش خالصين، وعشان العملية اللي صارت إمبارح بنتانيا مشددين الحصار. عاد الجندي وأغلق الحاجز . »

مرة أخرى دار الهرج والمرج. تقدم عبد الله وبدأ يقنع السيارات بالعودة إلى الخلف، فالجندي لا يحب رؤية الفوضى. كانت المسافة التي أثارت غضبه لا تتجاوز الأمتار الأربعة. ربع ساعة من الجهود الجبارة ..رجعنا إلى الخلف مترين، لكن الجندي رفض إعادة فتح الحاجز، فذهبت مجموعة من الشبان للحديث مع الجنود لكن محاولاتهم با ءت بالفشل، وعندما عادوا سألتهم فتاة : « شو صار بالمفاوضات ؟ » فأجابوها لا توجد فائدة !.

امرأة تقترب وتخرج تقريراً طبياً لمريض معها في السيارة، وتضيف انه أجرى عملية غسل كلى ويجب أن يرتاح. قال لها الجندي أنا جداً متأسف، عليكم الانتظار ثم قال إن الجمهرة تضايقه.

قلت هذا المشهد سريالي، فعلا. أبو ممدوح يقول: « بان هذا موقف صرماية (حذاء)، هذول مش جنود، هذول مجموعة عصابات. القصة مش بس تعذيب الناس، القصة تهجيرهم كمان. »

كان أبو ممدوح يزعق من الغضب واحمر وجهه. حاولت التخفيف عنه، لكنه ثار وقال :« الواحد بدو يقتل قتيل !! » (سال لعاب أبو ممدوح بغزارة، مسح عرقه بكم قميصه) وأضاف: « يشبكونا ببعض. هذاك اليوم على حاجز بيت لحم، واحد مرق عن الثاني، نزل الثاني وقتله».

مخيم الأمعري

سمعت عن زواج محمود فذهبت لأسلم عليه مع شاهر. دخلنا إلى الصالون الصغير، كان طرفه الأخر يؤدي إلى للمطبخ من ناحية، وإلى غرفة ثانية من ناحية. جلس شاهر الذي بدأ يشعل ولاعته ويطفئها دون توقف. وصل محمد ، نحيل، كما عرفناه من قبل، يرتدي قميصاً رمادياً وبنطال جينز. سلم بحرارة ولحق به شقيقه وليد. جلسا برهة وجاءت أمهما. أم محمد. تلبس ثوباً بنفسجياً، وتغطي رأسها بمنديل ابيض. دخلت يدها على صدرها، واليد الأخرى مدتها نحوي قائلة: «أهلا وسهلا يا ميت مرحبا، زارتنا البركة يمه». باركت لأم محمد بالعروس، وقلت لها مازحة : إذاً، جدت مين يساعدك بالبيت !!

ردت: «وإلا كيف. والله شاطرة، إلا مالها، والله محمد ارتاح يا ولدي كان هو اللي قايم بيّي (المتكفل بي) على أكل، على تنظيف، عمّني (لأني) عندي رجلي.. حشاك !» (تعاني من آلام في ساقها). نادت أم محمد على العروس الشابة، دخلت الشابة –صغيرة السن– ربما في الثامنة عشرة من عمرها. بشرتها بيضاء ناعمة، جهها مطوق بمنديل ملون، ترتدي بنطالا اسود

ضيق عليها نوعا ما. في يديها أساور ذهبية كانت الشيء الوحيد اللامع في الغرفة. بدت أساورها الذهبية غريبة في تلك الغرفة المتواضعة الأثاث. جلست الفتاة في منتصف الغرفة وكأنها مهيأة للخروج، طلبت منها حماتها إعداد القهوة لكن ألحقت هذا الأمر بأمر آخر فهمت نصفه، وهو أن تقدم الشراب، وشيء آخر لم افهمه بسبب انتقال شاهر من الولاعة إلى فرقعة أصابعه دون أي مبرر.

لم يكن تبادل الحديث ممكنا، رغم صغر مساحة الغرفة، إذ غطى على الحديث تراتيل آتية من المسجد القريب معلنة عن قرب الصلاة. لاحظت أم محمد عدم إمكانية تبادل الحديث مع الصوت المنبعث من المسجد فقالت لطفلة صغيرة أن تغلق الباب، فركضت الطفلة، وأقفلت الباب الحديدي بقوة فاهتزت الصور المعلقة على الجدران .

سألت أم محمد إذا كانت حفلة الزفاف كبيرة ؟ شاهر تبرع بالإجابة :« أنا والله كنت معارض لحفلة فرح . . » قاطعته أم محمد متمسكة بحقها بالإجابة: « والله بالأول تساءلنا على أساس هذا الاجتياح والطوق، بس إحنا كنا طابعين المكاتيب وسألنا محافظ الامعري قال لنا في غزة بيجوزوا لكن دون صوت (دون غناء) عاد والله إحنا دعينا كثير وفي بالنا ما راح حدا ييجي ، واجا كثير ناس، نسوان وزلام (نساء ورجال) ».

تدخل شاهر مرة أخرى، قال : « الناس بدها تطلع من بيوتها كانت لهم فرصة ، الغناني كانت عند النسوان فقط، لكن أغاني وطنية، عند الرجال كانت قهوة وبارد، وهذا هو، كان العرس بكير عشان الناس تروح على الفضا قبل العتمة، وقبل منع تجول، أو اجتياح.. بتعرفي . »،

تابعت أم محمد الحديث : « إحنا ما طبخنا أكل، والله محمد راح وصّى على أكل توصاي، أكلة واحدة، قدرة ورز وخلص. »

ارتفع صوت الأذان فسأل شاهر :« من سيذهب للصلاة؟ »

سألت شاهر عن سبب الصلاة: خوف، أو فقر، أو إيمان يا شاهر؟

فرد: « والله خوف وفقر أساسا، الإيمان موجود من زمان، لكن زي ما أنت عارفة الموت عم ييجي عنا بدون ما يدق على الأبواب، خلي الواحد ينظف حاله شوية بلكي رحنا على الجنة. »

احمد:« ما هو إذا استشهدت بتروح على الجنة!! »

شاهر: «بيني وبينك مش متأكد، أبصر الواحد شو عامل بحياته؟«

وليد- شقيق محمد ـ ممازحاً: « تعال اقعد احكيلنا شو عامل يا شاهر؟ ومنعرفش عنه؟..فضفض يا خوي فضفض. »

سألت وليد إذا كان يصلي فقال: «أنا مش عامل زي شاهر، واللي عامله بعرفه!. »

شاهر لم يعجبه الكلام فسألني - محاولاً تغيير الموضوع- إذا كنت قد ذهبت إلى بيت لحم بعد فك الحصار ؟

-أجبته بلا !

«لازم تروحي تشوفي الأب عطا لله حنا».

ياسر الكسبة يحب رشا

كنا نصعد، على طريق قلنديا مع كمال وشاهر، ونسقط بالسيارة على المطب تلو الآخر، كنت أتفرج على جدران المخيم بين مطب وآخر. شاهر يقول: « هذه شوارع المخيم مغطية بصور تتكلم، إحنا يا جماعة سوق حلال (سوق ماشية)، كل شهيد بيسقط بيتحول لصورة عالحيط . »

امرأة تنظر إلينا من احد الأبواب، وتنقل معلومات لمن في داخل البيت فتقول: « هذول ممكن يكونوا من الوكالة». سألتنا : « في توزيع واللا تسجيل ؟ » فأجابها شاهر : «لا يا أختي مش وكالة». ثم تابع :«حياتنا صارت أكم كيلو سكر، أكم كيلو فول، في الاجتياح الأول كانت الهزيمة، وفي الاجتياح الثاني كان الحساب . زعمائنا انكشفوا أنا يا جماعة بدي احكي ما حدا يسأل عنا، ما حدا.. والله ما في غير الدكتور ماهر يسأل دايماً، يسأل عن الناس ..شو ناقص ؟ عن الأوضاع؟ . »

وفجأة شاهر يتذكر موعداً، قال لكمال : « نزلني هون! عندي مشوار ». ثم التفت سائلاً : « عايزتيني.. رقم تلفوني معاك أي شي قولي لي، أنا رتبت لك مع احمد زيارة لبلاطة ونابلس، وأختي هناك في القصبة » (يلوح بيده ويختفي).

دخلنا بيت الكَسْبة. كانت فاطمة تجلس على أريكة مواجهة للباب، سلمت علينا بيد رطبة. لاحظت فاطمة أن صوت الغسالة يهدر بشكل غريب، فقالت إنها ذاهبة لإيقافها، كمال يقول لي هامساً: « فاطمة فقدت ولدين بينهم بس أربعين يوم، مسكينة مش واعية كثير على حالها، هذه كانت مرّة أجمل بنت في قلنديا ». عادت فاطمة وفي يدها صينية عليها شراب بارد وضعت الصينية وسألت :« صحفية؟ » أجبت برأسي : نعم.

وقالت دون مقدمات : « سامر طلع قدامي ..قلتلو وين ؟ قال هو بالمخيم، سامر يومها راح على الإرسال « (منطقة المواجهة مع الجنود في رام الله) » قلت لسلفي صدري مقبوض كان ياسر ابني صارله أربعين يوم مستشهد. كان صدري يوجعني. كنت ابدي أروح على الدكتور، تمنيت حدا ييجي عندي، يسليني، هيك احكي معاه ... وإلا سلفي الأصغر فايت عليّ، سألني: سامر هون؟ قلت : لا، وحسيت بوجع كبير عم بيهدني، قال: سمعت يا فاطمة انه سامر اجتو رصاصة براسه« !! . قلت خلص صار اللي كنت خايفة منه .. ياسر ..كمان أخوه استشهد برصاصة في الرأس ..طلعت على المستشفى» (فاطمة تضع رأسها بين يديها). «لما وصلت كانوا عم بيجهزوا للعملية، قلت لهم من شان الله نظرة بس، نظرة آخذه على صدري، بدي نظرة، من شان الله يا جماعة، بدي نظرة، كان نص أهل قلنديا صاروا سامعين، وواصلين المستشفى،كان بغيبوبة مش صاحي».

(لم اعرف إذا كانت تتحدث عن سامر أو ياسر، خفت أن أسالها بدت وكأنها تهذي، سكت، وتركتها تسترسل)

«ثاني يوم تحرّك. قالت لي الممرضة هذه حركة لا إرادية. قلت معلش، يعيش مشلول بس

يظل عندي، يمكن يعيش، ثاني يوم حرك إيدو ..ثاني يوم ». (تعض على أصابعها) » أحد، اثنين، كان منيح » (تصمت سارحة ، تعض مرة أخرى على أصابعها) «أربعاء وخميس تغير، حرارته ارتفعت بعدين نزلت، يوم الجمعه استشهد وما كنتش معاه .. ما حدا أجا يوخذني أشوفه ..كنت أودي كاسات الشاي على المطبخ، شفت جوزي وأخوه بتهامسوا، لما شفتهم بتهامسوا قلت سامر راح، هجموا علي، ضموني، أعطوني مخدر وراح. راح . »

تسرح فاطمة وتنظر نحو الباب، كأن سامر سيدخل من الباب الذي تظلله » شجرة المجنونة » (وردة ذات زهور حمراء وأحيانا وردية) ثم يأتي صوت فاطمة:« بتستاهل فلسطين؟ لو الكل يوقف وقفتنا.. بدناش يبعتولنا خبز وزيت، بدنا رجال توقف معنا.

كان الأب يستمع لفاطمة، وكأنه لا يعرف قصتها. عندما سكتت بادر بالحديث:« أنا ما قدرتش (لم استطع) امنعهم، بعثتهم على عمان، ، من هون لهون اسأل معروف هذا وهذاك، وقدرت ابعثهم على عمان، راحو عالمدارس، هناك لما رحت أزورهم، قالوا: يابا إحنا مش مبسوطين هون، قالوا يابا : «وانت زغير كنت تضرب حجارة، ليش بتمنعنا، أقول لهم اليوم بقتلوا برصاص. وظلوا وراي ورجعتهم بعد ما وعدوني ما يروحوش على خط المواجهة في المخيم، ولا في رام الله، والله ياسر قعد شهر ما يروحش انبسطت منه لأنه هو الوحيد إللى ماكنش متصاوب من الأولاد.

بعدين اكتشفت انه بيروح من برة لبرة على الجبل، وبيضرب حجار من هناك. مرة سمعت الخبر روحت على الجنود قلتلهم أعطونا فرصة نرجعهم، قالوا: آه روح رجعهم، وإحنا راجعين اتصاوبت أنا « (فقط حين قال ذلك انتبهت أن يده مربوطة إلى صدره).

فاطمة :«أنا رحت معهم على عمان بقينا ثلاث اشهر، كانوا يقولولي أنت جبانة، كنت أرد عليهم أنا مش جبانة أنا خايفة عليكم، عملت المستحيل عشان أبقى بعمان عند أهلي .. »».

(يقاطع الأب) :« حاولت أدخلهم مخيم صيفي قبل ما يستشهدوا، يعني حاولت انسيهم الحجارة. »

فاطمة :« ياسر كان يكتب على كتبه أنا بدي استشهد!! »

العم أيضا كان جالساً، نهض وغاب لحظات وعاد ومعه كتاب لياسر، فتحه أمامي، هناك جملة تقول: الشهيد البطل ياسر، ثم جملة أخرى، سامي علي الكسبة استشهد على ارض فلسطين، ثم رسم آخر لعين كبيرة كثيرة الرموش قاعدتها جذع شجرة، ثم على صفحة ٦٧ جملة: الشهيد البطل ياسر سامي الكسبة استشهد على ارض فلسطين المباركة. وكان يقول أنا شهيد، ثم رسم عينا كبيرة إلى جانب عين اصغر وعلى اليسار دبابة وعلى صفحة أخرى في كتاب آخر أتى به العم وهو كتاب «لغتنا الجميلة» من كتاب الصف السادس نسخ قصيدة تقول:

« تقدموا، تقدموا !
كل سماء فوقكم جهنم
تقدموا يموت منا الطفل والشيخ ولا يستسلم

وتسقط الأم على أبنائها القتلى ولا تستسلم
تقدموا !
وراء كل حجر كف
وخلف كل عشبة حتف
فخ جميل محكم
وان نجت ساق
يظل ساعد ومعصم
تقدموا!»

سامر رسم دبابة وجعل نافذتين لها تطل منهما كلمتا حتف وموت. ثم على صفحة ١٢٨ كتب: ياسر سامي علي الكسبة يحب رشا !!.

أم محمد

تعرفت بأم محمد في الانتفاضة الأولى، حينها كان لها خمسة أبناء في السجن، وكانت تزورهم الواحد تلو الآخر في سجون مختلفة .. وصلت إلى بيتها الذي كان من طابق واحد حينذاك، أما الآن فارتفع إلى ثلاثة طوابق، صالون البيت مازال على حاله، جدران الغرفة أسمنتية دون طلاء، كل ما هناك أضيفت بعض الكنبات القديمة أو تحولت إلى قديمة.

أم محمد هي أم احمد وعبد الحكيم و بهاء و زياد و سعد لكن احمد ما زال في السجن ، سالت أم محمد اذا مازالت تذكرني؟

فقالت:« إلا بتذكرك كيف لكان؟، بتذكر كل سجون إسرائيل، ومش راح أتذكرك!» ثم استدركت تضحك ، » لا مش كل السجون ما عدا سجن شطة ما كان لي في حدا!. »

سألتها عن احمد، فقالت: «اليوم احمد في عسقلان، طلعوه شوي على سجن جنين وشوي على سجن نفحة، قعد هناك سنتين ورجعوه على عسقلان، سجن نفحة أحسن إشي لأنه اقرب. »

سألتها عن حالها. قالت: « مبسوطة .. ظل لي واحد بالسجن، لكن مش مبسوطة لأنه صار لي ستة اشهر ما زرتش، ما في تصريح، والله على موعد الزيارة ما بنام، كل خمستعشر يوم بقلق لأنه يوم الزيارة! بصير أقول لحالي يمكن أزوره؟، مش ممكن أزوره، يمكن يحطوا حدا يشفق عليّ، من بعد ما طلعوا الأولاد بضل قلقانة، وبشوف هالنسوان رايحات على الزيارة بصير اتبعهم بعقلي .. هاي قربت على سجن مجدُّو، هاي قربت تصل على سجن الخليل، أقول لحالي هاي هسه (الآن) وصلت الشيك، هاي خشو يسجلوا عند الطاقة، قعدوا يستنوا . أنا فتت بالشهر السابع بدون زيارة، احمد صار اله تمنتعشر سنة. »

احمد قتل عميلا مع صديقه عيسى. عيسى خرج مع خروج المساجين، قيل لي إن أم محمد كانت تجري من باص إلى آخر تبحث عن أحمد، وها هو احمد بلغ الواحد والأربعين وما زالت تأمل أن يخرج وتزوجه كما زوجت أشقاءه.

أم محمد منفصلة عن زوجها الذي تزوج مرتين بعدها لكنه لم يطلقها كما طلق الثانية، إذ لا توجد لها عائلة تهتم بها، ولا يوجد لها بيت غير هذا البيت (على حد قولها)، انفصل عنها منذ زواجه الثاني، كان عمر ابنها امجد ٤٠ يوما كما قالت، في ذلك اليوم سجن عبد الحكيم. تقول أم محمد: « هالكيت امجد صار عمره ٢٣ سنة ومن يومه وأنا ازور اخوه. »

-كم عمرك يا ام محمد؟

-« أنا عارف (عارفة) والله ما أنا عارف !! »

- وزوجك ؟

- « لا اعرف وما بدّي اعرف (ضحكت ثم تنهدت) أضافت الرجال ما لهم أمان زي المي بالغربال، الرجال خونة، ما بستاهلوش!!. »

طريق طويل سجون صغيرة

« هل نخرج من حاجز قلنديا أم من حاجز الجوال ؟ » سألني كمال، وأجاب دون انتظار الرد: « خلينا نجرب حاجز قلنديا، وإذا ما زبطت، منرجع عند حاجز الجوال. ».

نذهب إلى حاجز قلنديا نصل إلى نهاية طابور الانتظار الذي امتلأ بالغبار وضجيج السيارات وزعيق طلاب المدارس وذلك في الساعة السادسة صباحاً. نمر أمام المقاطعة.. مجموعة من العمال تعمل على إصلاح جزء من السور، بدت بقايا إحدى البنايات كومة اسمنت في وسط ساحة المقاطعة.

نذهب إلى منطقة الإرسال - يقول كمال: « هون ساكن أبو العلاء . »

بعد بضعة أمتار، دخلنا طريقا ترابيا مليئا بالصخور، التقينا بسيارة ركاب عمومية، سأل كمال سائقها: « الطريق مفتوح يا أخي ؟ » رد السائق: « امرق من عند دار سامي!!. ». كمال لا يعرف دار سامي، توجهنا نحو تلة ترابية لا يمكن لحمار أن يجتازها، فما بالك بسيارة كالسيارة التي نركبها وهي سيارة « فورد ترانزيت » تجارية، تفادينا هذا الطريق، اتجهنا نحو « بيت إيل » على بعد مائتي متر، لكن مكعبات الاسمنت الجاثمة في الطريق منعتنا من الدخول، فعدنا أدراجنا نحو التلة الترابية.

رأينا شاحنة صغيرة تحمل ثلاث بقرات، شعرنا بالطمأنينة، وقلنا إذا مرت هذه السيارة فلابد أن نمر نحن ايضاً.

عبرنا طريق الجوال مرة أخرى من ناحية قرية سردا، ثم خرجنا من الناحية الثانية عند مكعبات الاسمنت، كل هذا اللف والدوران من اجل قطع مسافة خمسمائة متر، ممنوع المرور بسبب وجود مستوطنة « بيت ايل » القابعة على تلة اسمها الحلزون عندما كانت فقط للعرب. اتجهنا بعد ذلك إلى طريق نابلس القديمة بمحاذاة قرى « دورا القرع » و« جفنة » ، قرية جفنة سكانها من الإسلام والنصارى، هي قرية قديمة عريقة، تنتشر فيها أشجار اللوز حول المطاعم المغلقة من بداية الانتفاضة الثانية .

« مطعم الوادي الأخضر » ومطعم « الوادي طبيش »، ندخل قليلاً لساحة جفنة القديمة حيث

كانوا يحيون الأعراس في الليالي الملاح الخوالي. و«مطعم البستان» و«مطعم على كيفك» جميعها مغلقة . نواصل إلى طريق «بير زيت» التي كانت تدب فيها الحياة، بينما اليوم تبدو البلدة مسكينة وحزينة.

نقف نسأل اذا كان حاجز «عطارة» مفتوح يقول رجل : «والله اذا راق لهم». درنا حول «بير زيت ». ورغم الساعة المبكرة لا نرى طالباً جامعيا واحداً. التقينا برجل آخر فطرحنا عليه السلام، وسألناه عن طريق نابلس. فاجاب: « والله إذا أدخلوك من عطارة أحسن، واذا لأ، روح على مجدو!. » عطارة قرية مميزة بنسبة المتعلمين العالية فيها.

لا وجود لإنسان، أو سيارة، أو حتى حيوان، مررنا بهذا الصمت البديع حتى عيون الحرامية، عيون الحرامية سميت هكذا لأنها كانت مكانا لقطاع الطرق على طريق نابلس، هنا قتل ستة من الجنود الإسرائيليين برصاص قناص فلسطيني، القصة المشهورة التي حدثت في شهر آذار، ولم تعرف هوية هذا القناص.

مرت سيارات قليلة العدد ، وهذا أمر يبشر بالخير ، هذا يعني أن الحاجز القادم مفتوح، مررنا من قرية « ترمس عيَّة »، غالبية سكانها يعيشون في الولايات المتحدة، لذا ترى أبنيتها مبنية على الطراز الأمريكي .

نهبط مع الطريق، ثم تقابلنا تلة تعلوها مستوطنة «شيلو» ثم مستوطنة » نحليم» تدور حولها جيبات الحراسة، ثم مستوطنة «لفونة» التي اخذت اسم قرية» لبنة» - تحتها مباشرة- انتشرت فيها رائحة الربيع.

«حوّارة مغلقة ليش ؟» ، يتساءل كمال .

تجولنا بالسيارة في شوارع حوارة القليلة، لا شيء يتحرك حتى المسجد فارغ من الناس رغم أن وقت الصلاة قد حان، زعيق سيارة مرتفع ومخنوق في آن، صوتها أشبه بالجعير، ظهرت سيارة جيش ثم سيارة ثانية، تتوقف الشاحنة، وتعبر سيارتا الجيش، كنا عند سوبر ماركت الحسن. بعد مائة متر قطعت الشارع امرأة تحمل فراشا بالعرض، اختفت في حديقة منزل، لا شيء غير ذلك! نخرج من حوارة الصامتة دون أن نعرف أسباب صمتها.

على مفرق «بورين» اشرنا إلى سيارة تاكسي نسأل إذا كان من الممكن دخول نابلس، قال السائق:«من بورين (اسم قرية) بس (لكن) مشي إذا بدكم تجربوا الطريق العادي روحوا دغري (بشكل مستقيم) على الحاجز بعرفش إذا بمرقوكم ! هذاك هو هناك مش بعيد ..أبو كام مائة متر .»

وصلنا الحاجز، وقفنا وراء سيارتين، مر بنا رجلان مع حقائب، نسأل كيف خرجتما ؟

قالوا: « لأننا مسافرين خلوُّنا، لأننا مش من نابلس، كنا بس زيارة. »

وصلت مجموعة، ثلاث نساء ورجل يتكئ على عصا ، في طريقهم إلى نابلس، وقفوا لينظروا إلى الحاجز بتردد. اسأل :« سيسمحون لكم بالمرور ؟ »

رد الرجل ببرود:« أبصر (ربما) مش عارف ! تنشوف!» (لنرى).

توجه الرجل مع عصاه وكيس بلاستيك نحو الحاجز، سمعت الرجل يقول لهم :«عندي بورتيزا!!» (لا اعرف بأي لغة هذه البورتيزا، ولكنني فهمت انه مرض عظمي في الساق). الجندي لم يلتفت إليه، نظر في الكيس فقط .

تصل مجموعة أخرى، من أين يصلون ؟ لا ادري كيف ينبتون هكذا على الحاجز؟ لا ادري !!. رجلان وأربع نساء يتجهون نحو الحاجز، تعود امرأتان تتمتمان باللعنات على أبوهم. إحدى النساء أمسكت بيد طفل في العاشرة أو في الثانية عشرة، تقف بمحاذاة نافذة سيارتنا، قالت لي : « بدي أروح عند الدكتور عند الولد موعد مع دكتور تقويم الأسنان صار له ستة اشهر بدون فحص، وفتحت فم الطفل، كان الصديد يغطي الجزء الأعلى من أسنانه، لم املك إلا أن أتقزز، تؤمن على تقززي وتقول : شايفه ؟ والله الليلة ما نام من الوجع عمَّلوا أسنانه» (أصابهم التهاب) .

سألتها : من أين أنت ؟

-«أنا من حوّاره .»

-ليش حوارة مسكرة ؟

«لأنه حواره فيها منع تجول من ستة اشهر، بفتحوا من العشرة الصبح للساعة ثنتين.»

ثم استطردت المرأة :

-«ارجع، أحاول مرة ثانية، أترجاه ؟»

- شجعتها، حاولي مرة أخرى !

ثم عادت أدراجها نحو الجندي، أشارت إلى أسنان الطفل المتورمة. تمر، تمشي بضعة خطوات تعبر عنها سيارة، تقودها امرأة من المستوطنة، تقف السيارة للحظات تبصق من النافذة على المرأة وتسرع في سيارتها مبتعدة، عادت المرأة تبكي وتقول: بصقت على وجهي ...(امتلأ وجهها بالبصاق) . أعطيتها منديلا من الورق، مسحت وجهاً جميلاً وعينين سوداوين مكحلتين. ثم أضافت: « الله ينتقم منهم»- ترفع يدها إلى السماء .

سألتها : شو اسمك ؟

(قالت بعد تردد): «أم ثائر»

عادت أم ثائر نحو الجنود بثوبها الرمادي ومنديلها الجوتشي(Gucci)، استوقفها الجندي وأصر على استبقائها، لكي يرسل من يأتي بالمستوطنة كي تعتذر لها، قالت أم ثائر وهي تنظر مستنجدة أنها لا تريد أي اعتذار من المستوطنة، تريد أن تذهب إلى نابلس قبل عودة منع التجول .. لكنها وقفت طائعة، ذهبت سيارة جيب غابت لمدة عشرين دقيقة، عندما عادت السيارة فهمنا انه لم يجدها، يوقف السيارة التي أمامه ويطلب من السائق أن يوصل المرأة معه. أما نحن فقال إننا لن ندخل، وانه لا يمكن العبور من هنا، أشار لنا من ناحية عورتا، نسأل مجموعة من المغضوب عليهم أين عورتا ؟

قال أحد الرجال :«خذونا معكم !»

وافقنا، وركبت معنا ست نساء ورجل، سألونا عن المرأة التي كانت تبكي .

حكينا لهم القصة. لا داعي للقلق . سألناهم : من أين انتم ؟

قال الرجل : « أنا من (بيتا) ، مرّقوا أربعة منّا وإحنا رجّعونا، عدنا إلى حواره. استطرد الرجل الذي عرف نفسه أبو عرفات:« مساكين أهالي حواره صارلهم في منع التجول فوق الستة أشهر، وهم على هالحالة لا شغلة ولا عملة، بتلصلصوا على بيوت بعض . »

سألته : هل أنت يا ابو عرفات على اسم الرئيس ؟

-« لا والله على اسم عمي».

دخلنا قرية «اودلا» يقول أبو عرفات: « هذه القرية كان ساكن فيها سيدنا يعقوب عليه السلام، يعقوب أبو يَوسف، كان أولاده يسرحوا بالغنم هناك «يشير إلى السهول التي أمامنا، على بلاطة».

سألته : مخيم بلاطة؟

-«لأ، مش مخيم بلاطة هذه منطقة بلاطة موجودة قبل مخيم بلاطة، وين البير اللي زتوه فيه (يقصد الذي رموا سيدنا يوسف فيه) ، جنب قبر يوسف اللي بيقولوا أنه لهم» (أي خاص باليهود). استمر أبو عرفات بالشرح عندما انتبه أني مشدوهة بشرحه فأضاف : « وهون في عورتا في قبر اسمه (العوز) وكمان بيقولوا انه لهم ».

وصلنا حاجز عورتا كانت في الانتظار حوالي عشرين شاحنة، تنوعت حمولاتها بين حديد واسمنت ورمل، قطعنا جميع السيارات لان أبو عرفات قال أننا لا نحمل تجارة، وهذا الحاجز هو حاجز الناس العاديين، اقترب منا جندي سألني من أنتم قلت له صحافة. أشار إلى النسوة اللاتي حجبن وجوههن حتى العينين بوضع مناديل بيضاء: « وهؤلاء صحافيات كمان ؟ ». نظرت إلى الخلف رأيت مشهد النسوة،لم أتمالك نفسي، وضحكت فضحك الجندي أيضا، ثم أنزلهم جميعاً مع أبو عرفات، همست إحدى النساء بان نحكي معه لكي يسمح لهم بالعبور ، قلت لها: إذا عبرنا نحن ، نسأله وننتظر من الناحية الثانية .

وقفوا على جانب الطريق، بدأت الشمس تُلوِّح بيوم حار وحارق، فتش الجنود سيارة عبرت من الناحية الثانية لصحافيين أجانب، قال أبو عرفات من جانب الطريق : «إذا فتشوكم هذه علامة خير!!»

اقترب الجندي منهم وقال لهم أن يعودوا من حيث أتوا، لم يتحركوا وكأنه لم يقل شيئا ..نظر إليهم يائساً واقترب من سيارتنا سأل عن الهويات، سأل عن الكاميرات. لم تعجبه الكاميرات الصغيرة التي أحملها، قلت له أني اعمل في إذاعة ولا حاجة لكاميرات كبيرة ، وصل رجل يمشي على عكازين، حاذاني الرجل وقال انه مريض .

سألني الجندي:« هل تأخذونه معكم ؟ » . فقلت بفرح: طبعاً . هذا يعني أننا سنعبر. ساعدت الرجل على رفع رجليه إلى السيارة، وسألته كيف أتى لوحده؟. أجاب بأنهم لم يسمحوا لزوجته بمصاحبته. سرنا أمتارا قليلة التقينا مع أبو عرفات الذي كان ينتظر مع زوجته، ركبا معنا سألت

أبو عرفات عن باقي النسوة ؟ .
فقال :«لما بيجي على بالهم بيمرقوهم !!»
اعتقدت إنهن زوجاتك!
ضحكت زوجته ولأول مرة يصدر عنها صوت، أبو عرفات ينظر إلى زوجته الضاحكة ويقول : «إحنا بهاي ومش طالعين ببياض الوجه.. أعوذ بالله .. والله والله اللي بيتزوج ثنتين بعذب حاله بحاله، يعني بكون عقله ناقص أو في رأسه وشة (معتوه).»
قطعنا طريق وعرة بمحاذاة قرية (قَلّيل) ثم دخلنا لأول مرة إلى شارع عريض معبد وبعد عدة أمتار وصلنا عمارة مهدمة. قال أبو عرفات هذه العمارة كانت سبع طبقات قصفوها بطائرة ف ١٦ ومن بين أشلاء العمارة برزت يافطة كتبت عليها عبارة» إدارة التدخل وحفظ النظام» . وصلنا سجن نابلس وقد تهدم جداره الشمالي، وامتلأت واجهة السجن بالثقوب بفعل الرصاص، لكن كانت هناك صورة للأقصى معلقة على جدار بقي صامداً. قال أبو عرفات :« هاجموا السجن لأنه كانوا بدهم شخص مطلوب اسمه محمود ابو هول، قبضت عليه السلطة وحطوه بالسجن، ولما اجتاحوا نابلس أجو على السجن ليقبضوا عليه.. هم اليهود من هون ضربوا الغرفة، وهو ما كانش فيها لأنه الشاب الحارس لما حس على الجيش نقله على الغرفة الثانية، وإلا لو اجا فيه الصاروخ كان راح والله..»
وصلنا إلى وسط نابلس. وقفنا. نزل أبو عرفات وزوجته والرجل المعاق الذي نسينا وجوده أثناء الطريق، لكنه ردد أثناء نزوله:« والله أنتم الأصل، الله يبارك فيكم ..»

نابلس

في مدخل سوق نابلس المدينة القديمة إلى مقهى العكر، كاس ماء مثلج وقهوة سكَّرها قليل. جلسنا نسترد أنفاسنا هانئين بانتصار الوصول، وصلتنا موسيقى هادرة من بسطة قريبة، تقول الأغنية إحنا شعب الحرية، إسلام ومسيحية، امتنا عربية، ثم لحن طبل وموسيقى قصيرة، ثم صوت متواضع الإمكانيات يقول: دار دور وصواريخ، سرقوا القدس والتاريخ .....
مع وصول أيمن مزهر صديق محمد واحمد الحشاش، دخلنا إلى السوق، مررنا بحلويات الأقصى، افخر أنواع الحلويات النابلسية الشهيرة على حد قول صاحب المحل . طلبنا كنافة، أكل كل واحد منّا أوقية كنافة، واستغربنا من السعر الرخيص، سألنا صاحب المحل إذا كان هذا السعر يكفيه للربح. قال:« إذا كثر البيع بتوفي معي ، إذا ظل الحال هيك لا والله ما بتوفي معي !!»
أخذنا صحون الكنافة، جلسنا وظهورنا متكئة إلى جدار غطته صور الشهداء، أشار احمد إلى أحد الصور وقال: «هذه العائلة استشهدت بأكملها». ايمن يقف وينظر إلى صورة أخرى» وهذا اخوي استشهد قبل أحد عشر شهر بسيارة مفخخة لأنه كان مسؤول في كتائب الأقصى»، أيمن يسحب دخان من سيجارته يرفع يده مع السيجارة في الهواء، يشير إلى صورة أخرى يقول: «هذه صورة عائلة من ثمانية أنفار من دار الشعبة، وهذول من عائلة العسالي في حارة الأريول.»
وصلنا إلى بيت عمر الشعبة الذي يقع في حارة الاريول هدمت نصف البيوت فوق رؤوس

أهالي الحارة، أحد البيوت هدم نصفه وتحولت إحدى غرفه إلى شرفة جلس عليها رجلان، ينظران إلى الدمار، الذي انتشر فوقه دجاج يبحث عن طعام ممكن .

رجل معروف باسم عمبوز تبرع بالشرح، كأن يعمل دليلا سياحيا .. وبدأ يقول : « من هون اخرجوا امرأة وزوجها حية بعد اثنا عشر يوم .. » رجل آخر يقاطعه: «ستة أيام» ، يضيق عمبوز بالمقاطعة ويقول :«قال اثنا عشر أو تسعة ..كله واحد»

من هناك سرنا نحو حي الياسمينة مررنا من تحت قنطرة دمر البيت الذي فوقها . عمبوز كان معنا يقول :« فوق كانوا الشباب يطخطخوا عليهم، عاد والله قصفوها هذه القنطرة ..عمرها فوق الألف سنة ويمكن أكثر ...«يقاطعه احمد :« خمسمائة.. »

عمبوز : « أنا بقول فوق الألف سنة .. »

وصلنا حمام السمرة يقول حازم سعيد صاحب الحمام:« عمر الحمام ٢١٥٠ سنة لأنه بني في عصر السامريين، الحمام لبيت طوقان وأنا مستأجر، لما أخذته كان خرابة، وصار له ببشتغل عشر سنوات، بيجو نساء ورجال، البلاط هون تحته في حطب، الجسم لما بنام على البلاط بيشفيه، بيفكفكه من العقد »، يؤكد حازم أن هذا صحيح عندما رآنا مذهولين من قصة الشفاء بواسطة النوم على البلاط.

«اسأليني أنا ، كنت مصارع وكنت بطل فلسطين في سنة الستين، لعبت تلتميت (ثلاث مائة) لعبة مصارعة، في هديك الأيام كان محمد الهندي وعلي محمد أبو سلطان كانوا أبطال مصارعة، اليوم لا في رياضة ولا مصارعة، أبو مهدي وأنا كنا نهتم بالرياضة بشبابنا وخطر في بالي افتح الحمامات بعدين شغلة مفيدة وصحية، لاني بشتغل في المساج في حين أمارس شغلي في إطار جميل ومريح . »

« أجوا وقطعوا رزقنا لما فاتوا على الحمام، ليش فاتوا على الحمام؟ قلنالهم ليش الحمام؟ فاتوا وهات طخطخة ..شوفي ..شوفي !! « (يبحث عن أثار الرصاص) » عاد كانوا ييجوا يتحمموا هون هم وغيرهم، هون كان ييجي ناس مهمين. أجا عبد السلام المجالي من الأردن، وكل الوفود اللي بتيجي على بلدية نابلس أو وزارة السياحة بيجيبوهم هون، أجا يابانية وفرنسيين ...قال وهذول اليهود أجوا كسروا مالنا ورزقنا وراحوا. »

أيمن يسال امرأة إذا كان هذا هو حي اللولو ردت المرأة بصوت عال : « حارة اللولو؟..هذه حارة لولو؟ هذه لا حارة لولو ولا ياسمين وينو اللولو ؟ وينه ..؟ »

سرنا في زواريب قديمة سألت ايمن أين حي القصبة، يقول مذهولا :« ما إحنا في القصبة بس كل زاوية هون إلها اسم، بس كل هذه الأسماء في القصبة . »

مررنا بنصب تذكاري متواضع يخص الشهيدة عبير توفيق حمدان كتب عليه «الشهيدة البطلة عبير توفيق حمدان ، استشهدت بتاريخ ٢٠٠١/٩/١م» أثناء تأديتها لعملية بطولية. لحقت بنا المرأة المتهكمة مرة أخرى، وقالت : «هون في صواريخ، في شهدا، مفيش لولو!» (أشارت بإصبعها نحو قنطرة منخفضة ضاعت معالمها من الدمار) «هون استشهد أربعة شباب،

كنت عم بجلي الجليات (تنظف أواني الطعام)، وإلا هالصاروخ أجا هيك مرق هان وحط على الفرن، شاب استشهد على الدرج وهون استشهد اثنين والرابع نزف !!» . أضاف أيمن :« الرابع هو ذاته الذي رأيناه على شاشات التلفزيون يحاولون جره ثم يفشلون ويموت في مكانه بعد نزف متواصل.»

تستمر المرأة وتقول:« في واحد أخذوه على الثلاجة، عاد هيك قالوا لي، تحرك وطلّعوه كان لابس حطة حمراء وقعت منه، بكون هو ابن العبد، أخذنا هوياتهم وبلفوناتهم ووديناهم لأهاليهم، بس حطة ابن العبد قعدت مدة وبعدين أعطوها للزبال، اللي جرّوه من قوات ال ١٧ ، يمكن قعدوا أربع أيام وهم مرميين هان مخلوناش اليهود نعينهم ..لا إله إلا الله.»

اسألها عن اسمها، تقول: « حلوة »، ثم تبتسم وتنفض ثوبها الكحلي الفضفاض من الغبار وتستطرد : « أنا مش حلوة بس اسمي حلو ! سموني على اسم أم عبد الغني، أنا عندي ولد استشهد - يعلو صوت الأذان- تقول ها بصوت الأذان.»

طلت من فوقها شابة، نادتنا لكي نرى بيتهم (لم يرق ذلك للسيدة حلوة) فتمتمت:« أما أنت فقلبي ما يعشقش.» رغم الحرج من حلوة نصل إلى بيت الشابة .. بدت الغرفة التي دخلناها وكأنها غربال من كثرة الرصاص الذي حط في جدرانها وأثاثها المكون من سريرين وشاشة تلفاز طار زجاجه وناله ما نال الخزانة التي وقع عليها من رصاص رش، قالت الشابة:« كان الرصاص ينزل زي الشتا.»

شعرت بانقباض لا يطاق نظرت عبر النافذة كانت حلوة ما زالت تتحدث مع إحدى الجارات، كانت تقول لها :« والله الأولاد نسوا الجيل القديم وجحدوا المعروف - ثم يعلو صوتها غاضباً دون مناسبة - صدري راح من القهر وين بقولوا بدهم يعمروا ويصلحوا؟ قال الإمارات بعثت فلوس وينها طيب؟ ما يعمروا فيها!». ترد الجارة عليها :« أنا والله ما عنديش دار هياني بروح عند أولادي كل واحد بنام عنده ليلتين عشان ما أثَقِل عليهم.»

حلوة:« أنا ما عندي أولاد اروحلهم، جاحدين ، وين أروح ؟ هذا الدرج تهدم كيف أفوت، أنا بعمري كيف بدي أفوت عليه؟ ييجوا يصلحوه!.»

شمسه الشعبي

كانت شمسة التي سقط بيت أسلافها عليها وعلى وزوجها ممددة على الفراش في بيت شقيقتها. تلبس قميص نوم زهري اللون. سارعت قريبة لشمسة وناولتها منديلاً لتلف رأسها، وغطاء لساقيها المنتفخين كبراميل صغيرة وقالت لشمسة : « في شباب جايين معها .»

ثلاث أساور ذهبية في معصم شمسة المنتفخ، شمسة قالت:« أهلا وسهلا وكأنها تدحرج الأحرف على لسانها الجاف قبل أن تستعمل حنجرتها تلقي بضع قطرات ماء من إبريق اخضر بلاستيكي موضوع على طاولة في متناول يديها .»

أقول لشمسة:« أصبحت مشهورة .»

تبتسم شمسة وتقول:« صرنا في الدنيا كلها. الدنيا كلها حظ، أنا مريضة وزوجي مريض، وإحنا فقرا وما في عنا أطفال، ومثل ما أنت شايفة صحتي على قدي وهياني عشت وطالوني بالونِش (الرافعة) لفوق بعد سبعة أيام، سلافي يا ولدي كلهم لهم أولاد ، كلهم استشهدوا تحت البيوت خنق. لما روحت من المستشفى أول ما سألت عن الأولاد ، قالو لي: الله أعطاك عمرهم حكيت لا حول ولا قوة إلا بالله، أنا اللي على حفة القبر الله أعطاني عمر، وهم لا؟ حكمتك يا رب !.».

تصمت شمسة ، تبحث بيدها عن الماء لتبل لسانها من الجفاف الذي أصابها عندما كانت مدفونة تحت الأرض. تصمت لحظات ثم تتابع: « أنا مرضت أكثر من (بسبب) الصحافيين والصحافة كلهم يسألون نفس الشئ ويروحوا! تعبت من الحكي. » قلت لشمسة التي التقطت أنفاسها: طيب يا شمسة أنا سكرت المسجل، بلاش صحافة، وبلاش تسجيل، اعتبريها زيارة عشان نسأل عن صحتك.

-« تسأل عنك العافية، والله فيكي البركة.. عشان ريقي ناشف من الحكي لأنه مكانش مية نشربها وإحنا تحت لأنه خزانات المي فتحت علينا واندلقت علينا ويا لله مية. مية بس شو ما منقدر نشربها لأنه أول شي الدنيا سودا ، عتمة كحل والمي نازلة مع التراب تقولي مزراب .. والله كنت اسأل حالي وأقول ليش ما أجوا ينقذونا؟ واسأل شو صار بالدنيا؟ وين أهلي، عندي أخت وعندي أخي من زوجة أبي، فرسهم هذا هون مش بعيد عن بيتنا اللي في القصبة ..أفكر، أسال ايش اللي بيهزنا ، بعدين قالوا لي هاي دبابات كانت تمشي فوقنا ، عملوا بيوتنا طريق ثلاث طوابق من البنى (البناء) القديم، لما بدا ينزل التراب ما خذناش ولا أعطينا لكن لما شفنا هالطم للنص، أقول شو صار بالدنيا عم بتعتم؟ ، وبعدين لا عنا مطاردين، لا عنا شباب، بعدين انطمينا كلنا ، لا عاد يبين باب لا عاد يبين شباك وقعدنا بالطم ليل ونهار»

بلت لسانها بقليل من الماء تصمت لتأخذ أنفاسها ...أدرت عيناي نحو ثلاث فتيات كن يلعبن عند حافة شباك مستطيل، يضحكن دون إزعاج. أعود اسمع شمسة تقول : «زي القبر، أدوّر على شقفة خبزة، كنت طابخة كوسة قبل بيوم بس كانو بالمطبخ الخبزة اللي لقيتها كانت وسخة ومبلولة ورميتها. وعمني (لأني) همتي ثقيلة زي ما أنت شايفة من النفخ هذا وعندي الكلاوي والكبد ما اقدرش أتحرك، كان عنّا شمعة بس الحظ الكباريت انبلت بالمي ! أسال حالي إذا النهار، طلع؟ مطلعش؟ أسال ليش ما أجا حدا يفقدنا ، أقول لحالي كلهم ماتوا واتشاهد أقول لا الله إلا الله، ونقول يا رب، جوزي يا ولدي عنده الأزمة، بس كان معنا أكم بخاخة، صار يبخ حاله والله يمكن هي البخاخات اللي عيشته، كنا نقول انه بدو يموت منهم لكن هيا هم عيّشوه (أعانوه) ، سبحانك يا رب! كان عنّا لبن بالثلاجة كنا نحط على لساناتنا ونقول يا رب فرجك إحنا تحتك وشايف لا عملنا شي لحدا لا عمرنا آذينا حدا ، وإذا يوم دق هالسقف بعدين نزل حجر من السقف فكرنا خلص ... ما عادت الحيطان تحمل الطوابق اللي فوقها ، وسمعنا صوت بقول : يا أبو طلال ! ميت وللا طيب ؟ قال جوزي: طيب! وإذا هم كانوا أخوتي وأهالي القصبة والصليب

الأحمر، كلهم واقفين حوالينا بالحبال، طلعونا بالحمالة وأخذونا بالإسعاف، وعلى المستشفى. فكرك خوفوا مين اليهود لما نسفوا بيت على واحدة مثلي نص عايشه؟ ».

دخلت رنين شقيقة شمسه بحجمها الصغير في نهاية القصة وقالت بعد أن توقفت شمسه: « إحنا حسبنا أنها ماتت، هي وزوجها، لكن لما طلعوها قلوبنا وإحنا طلعنا معها. »

استرسلت رنين شقيقة شمسة بالحديث وحكت القصة مرة أخرى. كانت تعقّب وتشرح كل معلومة تضيفها بلسان طلق وصوت قوي ثابت. » شوفي كيف؟- تابعت رنين: شمسة مقعدة، سلفها ومرته (زوجته) حبلى و أولادها ثمانية ماتوا. قال الله تعالى: (يدرككم الموت ولو كنتم في قصور مشيدة) ، أنا عمري ٧٤ سنة فهمت العبرة ، هم ما فهموا العبرة !. »

نحن أيضا لم نفهم العبرة لكن رغم ذلك شعرنا أنها قالت شيئاً هاما بدليل الصمت الذي خيم علينا. ربطت رنين منديل الرأس البني بلون ثوبها ونعلها، وأضافت:« ما فهموش العبرة !. ». شمسه كانت تنظر بإعجاب لرنين أختها. استطردت رنين: « أنا أم العبد إحنا بنحب السلام ومنحب نعيش معهم بسلام لكن نعيش مع المستوطنين حدانا (بجانبنا) هذا مش سلام! يرجعولنا أراضي ال٦٧ إحنا في حدودنا وهم في حدودهم، نروح على بعض سياحة هذا هو السلام.

بلاطة

أول ما دخلنا قال ايمن مزهر :«هون اغتالوا اخوي عزام فخّخو له السيارة، كان يطلع مع صاحبه معاد، مد يده ..فتح السيارة، انفجرت». أوقف ايمن السيارة أمام القوس الأبيض في شارع الشهيد عزام مزهر، وتحت هذه الجملة صورة عزام يحمل سلاحا بيده، خلفه علم فلسطين، وعلى طرفي القوس انتصب علمان لفلسطين .

في الشارع الثاني طالعنا قوس من قماش كتب عليه «المقاومة خيار والعودة مصير » ووسط القوس صورة لقبة الصخرة. ندخل بيت حسام، تقابلنا أمه تقول :« أهلاً وسهلا. » فأبادرها بالقول : ألا تذكريني ؟

تدقق النظر في وجهي ثم تسأل: «مش أجيتي مع العبد ابني؟ والله هو أنت؟ كيف حالك يا بنية؟ فوتي! (ادخلي) والله ما كنت فاكرة مين أنت، أنت كنت هان قبل ثلاث سنوات بالأقل».

ادخل إلى الصالون الذي لم يتغير سوى بناء جدار يفصله عن البوابة الرئيسية، مما جعل الجلوس فيه أكثر خصوصية، إذ كان في السابق مفتوحاً على درج الطابق الثاني، حيث بيت حسام الذي أصبح اسمه يذكر في الفضائيات العالمية. لا يطول الانتظار ويدخل حسام، قبّل والدته ثم طبع قبلة على خدها، فأمطرته بالدعاء والتوفيق، يلتفت إلينا يحيينا بحرارة وحب. حسام في الأربعينات من عمره، وجهه مليء بالصحة والحيوية، يتحدث بشكل مباشر دون مواربة .

حكيت لحسام بعد أن طلب من والدته كأسا من المرطبات قبل القهوة، إنني أحاول، فقط، أن انقل الصورة ووجهة النظر كما هي وذلك مع عدد من المخيمات الفلسطينية والضفة ، فقال :« أكيد سمعتي كل شي صار في مخيم بلاطة، وشايفة شو راح يصير في بلاطة ؟ دخل الجنود المخيم

وهم يصرخون في الميكرفون ويعلنون منع التجول ويقولون: اللي بيطلع من بيته سيكون شهيداً، شهيداً، شهيدا. في بلاطة حققوا البعد الإعلامي والبعد النفسي. يضع حسام في حضنه أميرة ابنته الصغيرة عمرها ثماني سنوات. بدت أميرة مريضة ومنهكة كان حسام يقبلها بين الحين والآخر ويحاول تخفيف ألمها دون أن يقطع حديثه . تابع حسام : دخلوا مع هيلوكبتر ويمكن سبعين آلية معهم، الهدف من الدخول القضاء على سمعة بلاطة لأن مخيم بلاطة له سمعه مخيفة وطول عمره بيخوفهم، قعدوا أسبوعين قبل الدخول حاولوا أكثر من مرة يهجموا ونصدهم، لكن استعملوا عملاءهم بشكل مكثف، يعني مرات العملاء كانوا يمشوا وراء الشباب ويقطعوا المتفجرات، خلصت الحملة الأولى بديَت الحملة الثانية وراح تكون ثالثة ورابعة، هون في البيت خلعوا الباب، حشروا أولادي والوالدة في الغرفة أربعة أيام، بدون أكل، بدون كهربا ، طلعوا فوق عندي على البيت ،وبيت اخوي فوق بيتي، كّسروا وسّخوا ، مزعوا (مزقوا) جوازات السفر وسرقوا كمرتين فيديو».

دخلت أم حسام وورائها ابنتها الشابة وبين يديها صينية عليها كؤوس شراب بارد (تقطع على حسام الحديث) وتقول:« ابني الثاني متجوّز جديد خلّوا (أحالوا) داره زي الشارع، طفوا السجاير بالموكيت (السجاد)، من كثر ما طخوا من قدام دارنا والله قزازة (زجاجة) كولا من الكبار تعبّت فشك. هذه البنت (أشارت إلى أميرة الجالسة في حضن والدها) ماتت خوف وبطلت تحكي لما سمعت الصواريخ، كانت كنتي وبنتي يحكولهم بالإنجليزي: بدنا دوا ، بدنا نوكل، في أكل فوق ودوانا فوق، واحد وراها وَواحد قدامها بالسلاح، خلوها تجيب بس دوا ومخلوهاش تجيب أكل، إحنا أول بيت دخلوا وآخر بيت طلعوا منه».

دخل احمد الصغير له من العمر أربع سنوات وقال:«بدي اطخكم كلكم!». يجلس ملتصقاً بجدته وراقب والده الذي ضحك لكنه تابع :« شطبوا ٨٠٪ من البنية التحتية شطبوا سيادة السلطة». اقفل حسام هاتفه، في هذه الأثناء نزلت الصغيرة من حضن حسام وجلست بقربي وقالت لي أنها كتبت قصيدة شعر غابت قليلاً ثم عادت ومعها قصيدتها وقرأت:

« سندافع عن أقصانا بالحجر والسكين
ففداك يا قدس ترخص الأرواح
وتحية لمخيم جنين ! »

ثم قالت :« هذه كتبتها لما كانوا الجنود عنّا«

سألتها : ما هو الأسوأ في الاجتياح؟

«أسوأ شي لما كسروا الباب وفاتوا أنا خفت ما غدرت (استطعت) احكي، سكتت بس كنت اسمع «...(احمد الصغير يقاطع) يقول: « قالوا وين الزمن؟ وين المخرب حسام؟ ».

حسام يتدخل ويقول :« قالوا وير از ذا مان ؟ أحمد فهمها وين الزمن !!»

سألت احمد: خفت يا أحمد ؟

«أنا كنت بتغدى لما طبلوا على الباب!!»

قديش عمرك ؟

« ثلاث سنين. »

الجدة تتدخل: «لا أربع سنين. »

أحمد : «وما خلوني أتحمم، وحبسوني في الغرفة مع ستي، وما كنا نحكي ولا كلمة ..وكنت العب بالخرزة وفاتت بمنخاري (انفي)! وقعدوا كلهم يحكوا كيف بدهم يطلعوها وأنا خفت».

شقيقة حسام تقول لأحمد:« فرجيها (أريها) كيف كان الجندي نايم على الأرض ؟ »

ذهب أحمد قرب الباب، وفي يده سلاح وهمي ونظر بحذر إلى الخارج، ثم نهض وقام قائلاً: « أنا بخافش منهم، أنا كنت اغني لهم وأقول لهم » شالوم» يا بياع الفساتين، أعطيني تنورة، وفيها أمورة. »

تحكي أميرة وتقول: «أنا كنت خايفة على شان هاي أول مرة بشوفهم، كنت أشوفهم بالأول على التلفزيون، أما من قريب ولا مرة شوفتهم، هم طوال ولابسين اخضر ومشحبرين وجوههم، وأنا كنت مشتاقة لبابا وكانوا يسألونا عن بابا وهو ما كان بالبيت، وكنا خايفين عليه. أنا زعلانة منهم لأنهم قتلوا عمو ياسر وعمو السنفور، وعمو السنفور ما راح نشوفه لأنه استشهد يعني طلعت روحه (تضع يدها على قلبها الصغير) بتطلع الروح وخلص مات. أنا ما قبلت اخذ منهم شوكولاطة لأنه مرات بعطوا الأولاد شوكولاطة و يسألوهم أسئلة ولما منقولهم يكون الحق علينا، وأنا زعلانة منهم لأنهم طفوا السجاير بغرفتي هيك على الأرض ووسخوها».

ثارت غيرة احمد من أخته عندما لاحظ إصغاء الجميع لها، فأخذ مني آلة التسجيل، فقلت له: أنت يا أحمد بتتشاطر عليّ وما بتتشاطر على الجنود ؟

« أنت وجعتي لي راسي !! »

نضحك، ما زلنا نشهق من الضحك فاختلط الضحك وخلت أن ضحكنا هز البيت ولكن اختلط عليّ الأمر. عندما غاب رنين الضحكات مع ارتجاف أميرة على ركبتي، نظرت حولي لأرى شهوداً. رأيت الجميع قد ركض وما رأيت غير ظهورهم تتراكض نحو الباب.

قصف.. قصف .. قصف. أزحت أميرة عن ركبتي، وذهبت نحو آلة التصوير وحقيبتي. أميرة مشت خطوات، بضع خطوات، فانثنت ساقيها وهبطت على الأرض دون صوت، وكأنها مصنوعة من القطن، ركضت نحوها احتضنتها، شددتها إلى صدري وكأني أريد إعادة حرارة الحياة إليها.

قالت مرتعبة: « بدهم يفوتوا عنّا، بدهم يفوتوا عنّا!».

وصلني صوت من الخارج: « ضربوا دار شتيوي ، حموده شتيوي ...». أصوات ركض. صراخ. بكاء. عاد حسام، اخذ أميرة مني وضعها في حضن جدتها واختفى. خرجت مع أيمن وأحمد، سرنا عشرات من الأمتار في خليط من الناس. رأيت نفسي وسط المئات منهم ووسط القبور. سألت: من استشهد؟

أكثر من صوت قال: «استشهد...استشهد.».

امرأة تقول لي: « محمود الطيطي وأصحابه إياد حمدان وعماد الخطيب».
وصوت آخر يعلو:« بس بدهم محمود وهؤلاء راحوا بعروته».
«لا حول ولا قوة إلا بالله» (يعلو صوت امرأة) » كانوا قاعدين ورا دار الحمّامة على هذا القبر».

نظرت نحو المقبرة كان الشباب يبحثون عن قطع من الجثث، في البداية لم استوعب أنهم يبحثون عن قطع من المخ والأصابع. شخص يقول: «هناك، هناك جنب الحجر، كنّها شققة لسان، والله هناك». يضعها في كيس بلاستيك، و آخر يقول: « ادفنها! ..ادفنها يا رجل !».
«هذاك .. هذاك إصبع !».
«خلص يازلمة غطوه !».
«لا، لا، هذاك إصبع ..هات لهون! هات!»
«أصوات سيارات إسعاف.صراخ. جوه صفراء».
«من وين ضربوهم؟ ».
«الله يعينهم يا زلمة ثلاث أصحاب».
«ضربوهم من جبل جزين».
«عصام، يا .. عصام، وين رايح؟».
«على المستشفى ... هذه الشققة منهم».
«ادفنوها! ادفنوها! ... الباقي خذوه على المستشفى!»
«وين..؟ أم محمود؟».
«مش هون»
«ولكو يا عمي ارجعوا لورا!»
«ارجعوا لورا .. خلونا نشوف شغلنا!! من شان الله».
«اسا (الآن) بضربوا عليكم! انضبوا في بيوتكم!»
«ما عادش يضربوا هالكيت .. اللي بدهم إياه اخذوه.».

أمواج من الناس تتحرك، جميعهم يتحدث بجمل قصيرة سريعة لاهثة، أحاول الخروج، أحاول التنفس، أحاول التقاط صورة. رأيت طفلين متعانقين، تبعتهم بنظري التفت أحدهما، يحرك يده نحوي، ويسأل بعينيه ماذا أريد؟ أحوّل نظري بعد التقاط صورة. اقترب من مجموعة أطفال ونساء، أحد المصورين، يسألني إذا كان معي بطاريات؟ ..أناوله واحدة، التصقُ بالجدار مع مجموعة من النساء والأطفال. اسأل امرأة بجانبي عن بيت محمود الطيطي؟ تضرب على الجدار وتقول:«هذا هو ! البيت مقابل المقبرة تماماً».

البيت مكوّن من ثلاثة طوابق من الأسمنت، ومع أن البناء ليس جديداً إلا انهم لم يفرغوا من طلائه، أو تركيب شبابيكه، مما يدل على ضيق الحال، ترتفع الأصوات مرة أخرى، يقولون: « هذه أمه!».
«لا مش أمه! هذه أخته!».

وصلت شابة متوسطة القامة، منفوشة الشعر، تمسك امرأة أخرى بيدها، وصلت أمام المقبرة. التفتت الأخت حولها، نظرت في عيون الجميع، وركضت مبتعدة بقميصها المنقط بلون البرتقال، انحل شعرها، وهي تقول جملاً لم افهم منها شيئاً، ارتفع صوت الهرج والمرج وعلت أصوات مهتاجة: «هذه المرّة! هذي حياة حياتنا؟ بيتصيدونا زي الأرانب». صوت آخر يعلو: «يا عمي بلاش بلوفونات (الهاتف الخليوي) بلاش!! بتصيدوكوا بالرادرات!». «الموت للعملاء.. الموت للعملاء!».

«يا ربي.. يا ربي وينك؟.. ليش غايب عن عبادك؟ يا ربي انزل وشوف! ظلم، والله ظلم.. شبابنا انقتلت، ونسوانا ترملت، وأولادنا تيتمت، وأنت شايف.. شو حكمتك يا ربي؟ شو حكمتك؟ يا رب» تقول امرأة وقد عصرها البكاء، وناحت بصوت كالمواء.»

صوت يهددها: «ما تكفريش يا مرة! اتعوذي من الشيطان!»

«الله اكبر، يا جماعة، الله اكبر» (صوت آخر)

«كبير كبير بس خلينا نفهم». (امرأة بصوت باك) «قتلوا كل الشباب المناح، راحوا كلهم». تبكي، تتراجع نحو الجدار، وتصمت. محمود يقترب مني ويقول لي: «أنت وجهك اصفر لأنك بعدك بدون غذاء، شو رأيك آخذك عنّا على البيت نوكل لقمة؟». استغرب سؤاله عن الطعام في هذا الوقت بالذات لكن هاتفي يرن: كويفا... نعم «ماذا حصل في بلاطة؟ سمعنا قصفوا...؟!». آه قصفوا ثلاثة أشخاص... وين أنت؟ «في مخيم جنين»، شوفتي حسام؟ نعم هل سأراك غداً؟ أين سنلتقي؟ بجانب مستشفى جنين، لكن قبل أن تتركي نابلس اتصلي بي!.

كويفا

شابة ايرلندية التقيت بها في فلسطين، ولكن سمعت عنها في جنيف، ثم في رام الله وصلت إلى فلسطين لكي تشارك في الدرع البشري، كانت مع ياسر عرفات في المقاطعة في رام الله أثناء الحصار، سمعت أخبارها في أكثر من مخيم، فهي مناضلة عالمية كانت في غواتيمالا، وفي المكسيك، وزمبابوي، للنضال مع المظلومين من غياب العدالة.

وصلنا إلى فندق كريستال في نابلس على شارع فيصل، دخلنا تاركين وراءنا أزيز الرصاص الذي يطلق على لا شيء، وصراخ الشباب الذين نادوا الحوانيت القليلة المفتوحة أن تقفل أبوابها. زحفت العتمة، ولفت وجوه الناس بالحزن والظلام.

صاحب الفندق ينظر إلينا ببرود لكنه يسأل: « شو؟ انتقموا لعملية ريشون لتسيون« نعم.

«والله ما أنا عارف لوينتة ياجماعة؟ لوينتا؟»

كنت منهكة، جائعة، الغبار يتساقط حتى من أذني. ولم أكن ارغب في أي نوع من الحديث، فسألته عن سعر الغرفة، وأخذت مفتاحي، وصعدت بعد أن سألته عن توفر المياه في الفندق. فقال: «في كثير».

تركت كمال وأيمن ومحمود في قاعة الفندق، طلبوا قهوة، واعتذرت منهم، ودخلت غرفتي.

فتحت الراديو لسماع الأخبار، قال المذيع: «عمر محمود الطيطي ٢٨ سنة التحق بالأمن الوقائي، وكان ينظم عمليات استشهادية، وهو متهم بتنظيم عملية ريشون لتسيون......».

ربما كانت رائحة البيض المقلي بالزبدة المخلوط بزيت الزيتون أطيب رائحة استنشقها في حياتي بعد نهار وليلة جوع، نشرت قطع الفلفل الأخضر الحلو في نصف رغيف على نصف حصتي من البيض، ثم قضمت بشهية أتحدى العالم بها خصوصا بعد رشفة شاي معطرة بأوراق النعناع الخضراء، لم يكن أحد في المطعم سوانا أنا وكمال، باقي النزلاء تركوا الفندق باكراً لكي يبدأوا رحلة الحواجز ومنع التجول.

علمت أن عدد النزلاء يتزايد أثناء منع التجول إذ تنقطع بهم السبل وخصوصا عندما لا يجدوا يوجد أقارب وأصدقاء. يقول مدير الفندق: «في أيام الاجتياح كانت جميع الغرف مشغولة، وأرضية القاعة (اللوبي) أيضا مفروشة، وجميع هؤلاء مسافرين يضطرون للتنقل بين المدن أو لحاجة في المدينة، مصايب الناس فوائد لغيرهم ... حكمته!»(يرفع يديه إلى السماء).

كويفا ابنة جنين الايرلندية

«بوكر طوف» (صباح الخير) أقول للجندي على الحاجز .

- «بوكر طوف مؤار» (صباح خير منوّر) يضحك، ويسأل عن البطاقات، ثم يطلب أن نخلع النظارات! نستجيب. يدقق النظر. اسأله: إلى متى يستمر الحال على هذا المنوال؟

يرفع رأسه ويقول: «ألم تسمعي بما فعلوه في ريشون لتسيون؟»

نعم سمعت وسمعت ما فعلتموه في بلاطة.

«يوقفوا الإرهاب!»

لكن انتم هنا في ارض السلطة ، انتم هنا، إذاً هناك إرهاب!

«أنا أقوم بعملي فقط».

وهل أنت مسرور لأنك هنا ؟

(يجيب بجفاف) «أنا مسرور لأني أقوم بعملي، أنا لا أقرر، إذا قالوا لي عد! سأعود ولهذا لن أعارض، إذا قالوا عد وراء الحدود سأكون مسروراً أيضا!»

ما اسمك ؟

«ايتسيك»

امرني بالعودة إلى السيارة، وانتظرنا، مر أشخاص على الأقدام، أعاد فتاة تحمل ثلاثة أكياس بلاستيكية، مر خمسة شباب، أعاد ثلاثة منهم من حيث أتوا، ومر شابان في مثل عمر ايتسيك .

أقول لكمال: أريد الذهاب إلى الحمام، هل اطلب منهم أن يسمحوا لي للذهاب من وراء ذاك البيت؟ (هناك بيت مهجور كتبت فوقه عبارة « أدوات صحية»)

«لا إسا بطّخوكي ! استني بلكي حنوا ومرقونا».

نادونا، فتشوا السيارة، ثم أعادونا، وعبرنا إلى اليمين. سألنا شاب: «لماذا ذهبتم إلى

هناك؟ كان لازم تروحوا على اليمين بالأول لأنه في حاجز ثاني على اليمين، حظكم مش منيح!».
توقعنا شراً من قوله، سرنا واقتربنا من الحاجز الثاني، دبابة في الوسط، مكعبات إسمنتية، دبابة على اليمين.

لا أحد .. لا يوجد جندي واحد، عبرنا ، اسأل كمال: لماذا لا يوجد أحد؟

كمال يتحدث من بين أسنانه: « ما تحكيش! ما تحكيش!».

مررنا. لا توجد سيارة واحدة في الاتجاه المعاكس، خفف هذا من توترنا ،ولم نر أي سيارة حتى قرية سيلة الظهر، ولكن أيضا في قرية عجة لا أحد في الطريق! بدت الأرض مهملة والحشائش البرية غطت أشجار الزيتون. بعد قرية المنصورة التقينا بأربعة شباب أخذناهم معنا إلى جنين. سألناهم لماذا لا يوجد أحد؟ ولماذا أهملوا الأراضي؟ قال أحدهم: «اللي بينزل على أرضه بيقتلوه!! من ثلاث أسابيع قتلوا طفلين من«عرّان» كانوا يلقطوا ورق عنب مع أمهم! (أشار بيده إلى جانب الطريق) هذه البامية بتظل تتحوّش لشهر آب، هون قرية الشهداء، هون في نصب تذكاري للشهداء العراقيين اللي سقطوا في حرب ١٩٤٨ سموها هيك عشانهم! ومن هوني دخلوا قباطيا، كان اسمها مثلث الشهداء لكن لما سقطوا في جنين عاد سموها قرية الشهداء العراقيين . «

قاسم ودعنا ونزل في وسط جنين حيث دلقت الكراجات محتوياتها على الشارع الرئيسي الذي زرع رغم هذه المشاهد بالأشجار الجميلة، أحد الشبان الذين بقوا في السيارة شبّه هذا الشارع بشارع المطار لجماله. لولا آلاف العجلات المنتظرة دورها للتصليح.

توجهنا نحو مستشفى مخيم جنين كانت هناك جمهرة هناك لا تبشر بالخير، سألنا عن السبب وبطل العجب عندما قالوا: « شهيد ... شهيد ... خالد محمد زكارنة من دير غزالة، جابوه إمبارح على الثلاجة واليوم جايين ياخذوه (أتوا ليأخذوه)».

كيف استشهد؟

تبرع أحدهم وقال: « استشهد في اشتباك مسلح في سيلة الحارثية، انتم منين جايين كان في كل هذيك المناطق منع تجول». وصلت سيارة تندر صغيرة اعتلتها المكبرات الصوتية والأعلام، وصدحت منها موسيقى وطنية .. الصقوا على السيارة صور لعشرات الشهداء يحملون الأسلحة بأيديهم ويقفون وكأنهم خرجوا من أفلام هوليود الحربية، صورة للشهيد إياد محمد حردا وقف في مواجهة الكاميرا يحمل سلاحين وكأنه رامبو وصورة أخرى لثلاثة شهداء بدوا وكأنهم يمشون في صورهم العريضة وبنظرات ثاقبة يختلج لها الناظر، أما الخلفية فمحجوبة بضباب مصطنع.

وقفت أنتظر كويفا، التي ما أن لاحت بقامتها الطويلة وقميصها البنفسجي وبنطال جينس، حتى اقترب منها شباب ونساء يسلمون عليها، أما الأطفال مع الأعلام فصرخوا لها محيين: «كويفا ..كويفا هالو كيف حالك؟».

وقفت لألاقيها ولكن اعترض طريقها فتيات غربيات عانقتهن بحرارة، تقدمت لأعرف بنفسي وانقل لها تحيات والدها، تبتسم، يمنعها من رؤية ابتسامتي احتضان آخر من طفلة جنينية، بعد جهد أجد ليدها طريقاً ولكن سرعان ما أصبحت جزءاً من المجموعة، نتفق أن أبقى معهم،

صعدنا في تندر وتوجهنا لإحدى المدارس في جنين. تعلّق بعض الأطفال بالتندر، كويفا تقف وتساعدهم على الصعود.

آنا، الشابة الأسبانية، تشرح ما يقمن به من نشاطات مع الأطفال في المخيمات. كنّا نخترق دمار مخيم جنين، صوت أزيز رصاص انطلق من الجنازة، كويفا تعلق على صوت الرصاص وتقول: « سيستهلكوا الرصاص القليل المتبقي».

منال فتاة من نابلس تتحدث بالهاتف رغم المطبّات التي تعترض السيارة، والرصاص الذي يدوي، والنقاش الدائر بين الخمسة عشر فردا ممن ركبوا التندر. وصلنا المدرسة وما زلت أفكر بالدمار الذي مررنا به مر الكرام، احترت من اللامبالاة هل لأنهم يرونه كل يوم؟ أم انه أصبح جزئاً من مناظر المخيم. وصلنا عند انتهاء اليوم الدراسي أي في الثانية عشرة، هذه هي المدة التي تسمح بها ميزانيات الأونروا لتعليم أطفال فلسطين وما تبقى من ساعات النهار يهيمون في الشوارع أو يبيعون العلكة.

أحاط بنا الطلاب والطالبات بملابسهم الخضراء والزرقاء المخططة التي لبسوها فوق بناطيل الجينس، التصقوا بكويفا وامسكوا يدها، معلنين حبهم الشديد إليها . بيتر بدأ بعرض ألعابه السحرية، تجمع حوله فريق كبير منهم، والجزء الباقي خصوصاً الفتيات الصغيرات تقاسمن منال وآنا وإيميلي وكويفا، حتى أنا طالني الحظ بعدد منهن إذ أحاطت بي مجموعة منهن تعرفت على أسمائهن بسرعة: أنعام بسام، ورهام حسين، وعرين حواشين وأريج شلبي، وعاصفة محمد، ابتهال احمد،ووفاء. إنعام تسألني أن أنام عندها. أسألها : لماذا؟ فترد: « عشان نصير صحاب!!»

سألتهم عن الاجتياح، قالت أنعام: « إحنا وصلوا عنّا الساعة ثلاثة على وجه الصبح، طقطقوا عالباب، دفشوه، نزلونا وحطونا بالمطبخ وظلينا هناك». تقاطعها وفاء: « واخذوا الناس وجمعوهم وفتشوهم، كانوا الشباب عريانين (عراه) من فوق وحافيين كان واحد منهم مصاب، ومخلوش حدا يساعدو، حطوا الأولاد الصغار لحال (لوحدهم) والنسوان لحال، والرجال الكبار لحال ... أجا عنا ناس بدهم يشربوا بس ما كان عنّا مية» (ماء).

إيريس تحشر نفسها (رغم خجلها المفرط وتساهم في الشرح) وتقول: « إحنا حبسونا بشقة اخوي ثلاث أيام، مكانوش يخلونا ناكل على راحتنا، وسكروا علينا الباب بالمفتاح .. ولما أبوي سألهم يسمحولو يطعمي الفرس، مخلوهوش ... شكلهم بخوّف، وسرقوا من عنا بلفون ومصاري .. وعجبّوا (دمروا) على الدار وبعدين راحوا».

عاصفة، اسم على مسمى، تتحدث كالعاصفة وتتحرك كالعاصفة فتقول: « هُمّ هُمّ بخافوا من طيراتهم إحنا منخافش، شو ما عملوا فينا، اللي عملوه فينا راح نعملوا فيهم وأكثر! بيجي يوم والله شاهد لأنه الظالم يدفع الثمن غالي!. ». كم عمرك يا عاصفة ؟

«أنا عمري ثلاثة عشر سنة. »

أنت بتحبي السلام؟

«أنا كنت أحب السلام، هالكيت (الآن) لا، أنا بحبش السلام، لأنهم بيكذبوا، إحنا عملنا

سلام مع رئيسهم الأولاني رابين، راحوا مزعوا (مزقوه) السلام، مزعوا الاتفاقيات واحدة ورا واحدة، وأنا بحبش الدول العربية، إن شاء الله يصيرحرب، وإسرائيل تحتل الدول العربية وهذا راح يصير أكيد عشان يذوقوا من اللي ذقناه، ويذوقوا خوف العذاب، يذوقوا مذلة الاحتلال، ويذوقوا الوحدة كمان».

الوحدة ليش يا عاصفة؟

«لأنه إحنا لحالنا، عايشين بوحدة ما حدا بيساعدنا، كل الناس بتحكي عنّا وما حدا بيتحرك، إحنا عايشين أكثر من وحدة، الفضائيات هذه لو انحلت مشكلة فلسطين غير تسكر (تقفل) من ثاني يوم الصبح، لأنه فش عندهم أخبار غير إحنا، أنا بحبش لما يحكوا عنا بالفضائيات بشعر انه إحنا صرنا بجنينة حيوانات، بزتولنا كشر (قشر) موز وفستق وبيروحوا على دورهم يحكوا عنّا عاملين إسلام ومتشددين في الدين؟؟».

بدأت حبات عرق صغيرة تبرز على جبين عاصفة وتتدحرج ثم تجف في حر جنين، نظرت إلى عاصفة بحب جم شعرت به، احتضنتني وقالت: « بتحكّموا فينا زي ما بدهم، زمان كنا نروح رِحل(رحلات) على منتزهات أريحا لما يكون عيد؛ ولا عمرنا عيَّدنا...نسيت العيد»

عاصفة : « لوينتة ؟ لوينتة؟ (إلى متى) ، إحنا زهقنا الحرب، بدنا نعيش بدنا نروح رحل، مشاوير، بدنا نعيّد أنا بدي البس فسطان جديد وافرح يوم، بس يوم.» ترفع إصبعا واحدة لتؤكد على اليوم الواحد .

بيتر انتهى من ألعابه السحرية وتجمع الأطفال حول اميلي وآنا ومنال لكي يرسمن فراشات ملونة وورود حول وجوههم، وقلوب حمراء على الأيدي، كنت أقف بجانب إميلي، تتحدث بالعربية، يسألها طفل أن تكتب له سرايا القدس على يده، إميلي تقول:« لا؛ ارسم لك قلب هُب (حب) اهسن (أحسن) ». الطفل يقول: « لأ .. لأ، بدي سرايا القدس». إميلي لا ترد عليه، وترسم له قلبا احمر على يده، يغضب الطفل منها، يتناول حجرا من على الأرض ويقذفه نحوها.

تقدمت وأنبّته وقلت له: ليش هيك؟ إميلي توقفني بيدها وتقول بالعربية: « بسيطة، لأ خليه يِطَلِّع الشر من حاله بعدين بصير أهسن (أحسن) لازم يطلع الشر عشان هو ملان زعل».

أماني ابنة نابلس جلست في إحدى الخيم التي نصبتها الأنروا للذين تهدمت بيوتهم في مخيم جنين ولكن رفض هؤلاء السكن فيها، لأنهم لا يريدون العودة للخيم مرّة أخرى ليبدأوا من الصفر فتُركَت هذه الخيم مغلقة ما عدا القليل منها تستعمل في تجمعات نادرة من هذا النوع.

أماني شابة تتجول في المخيمات مع بعض شباب نابلس وعدد من الأجانب للترويح عن الأطفال، عندما دخلت كانت تقول: « يا الله كأنهم مش أطفال، كأنهم عواجيز خجلانين يكونوا أطفال ويلعبوا، نسيوا حقهم باللعب نسيوا.. يخافوا أن يقولوا إحنا خايفين». أماني، ربما في الخامسة والعشرين، سمراء تتحدث من وراء نظارات مستديرة وتنظر في جميع الاتجاهات ولكن وجهها يحافظ على هدوء عجيب .

سألت أماني: منذ متى وأنت تتنقلين في المخيمات؟

«إحنا مجموعة من شبيبة نابلس بدأنا بالتنقل بالمخيمات يعد الاجتياح، وكل مرة ينضم لنا ناس جداد بدهم يعملوا شي، إحنا بدناش فلوس، منقدم اللي معنا اللي معنا هو ضحكة وبسمة لعيون هؤلاء الأطفال».

إميلي تضيف: «أنا أجيت أسبوع قبل الانتفاضة، يعني من سنتين تقريباً للتدريس في جامعة النجاح، أنا بحب هؤلاء الناس لأنهم لحالهم، وبعدين ليش لأ؟ أنا شو بعمل في أسبانيا؟ أطفال أسبانيا مش بحاجة لي وأنا بتعلّم عربي بنفس الوقت» (إميلي تستمر في الشرح) بيتر وألعابه السحرية طوّرت الفكرة ووسعت من الاهتمام بمجموعتنا. (بيتر سمع اسمه يتردد أكثر من مرة ولكنه لا يستطيع التعبير بالعربية مثل إميلي وكويفا فقال باللغة الإنجليزية: «أنا لدي نافذة انترنت وأريد أن استعمل المعلومات التي أشاهدها مع الصور التي التقطتها لأقول للعالم كم هو الاحتلال ظالم وأيضا ليبقى عذاب هؤلاء الأطفال في الذاكرة. أنا اعمل مع الأطفال في أسبانيا، ولكني لم أر، ولم اعرف أن الأطفال يختلفون، هنا لديهم نشاط رهيب وقدرة على الحركة، وهم يستمتعون أكثر من الأطفال في أسبانيا بما أقدم لهم، هؤلاء الأطفال يعيشون ظروفاً غريبة ولمدة طويلة يولدون فيها ويتزوجون فيها وينجبون أطفالا مثلهم يحملون ذاكرة آبائهم وأجدادهم ويعيشون من خلالها، أنا لست محللاً نفسياً ولا افهم الكثير في هذا المجال ولكن شيء ما يقول لي أن أطباء العالم يجب أن يدرسوا هذه الحالات».

كانت أماني تصغي باهتمام لما يقول بيتر وقاطعته بالعربية قائلة:

« المشرب ليس بعيداً
أنت كالاسفنجة تمتص الحانات ولا تسكر
يحزنك المتبقي من عمر الليل بكاسات الثملين
لماذا تركوها هل كانوا عشاقاً
هل كانوا لوطيين بمحض إرادتهم
كلقاءات القمة؟ »

يصفق الشباب والاطفال لأماني وأحدهم:« يصيح الله عليك يا مظفر النواب». الأطفال يصرخون :« يا عيني يا عيني ».

سألت كويفا هل أنت معهم؟

فترد آنا: « كويفا حزب لحالها، مشهورة في بلاطة وجنين».

يضحكون من قلب صافٍ بعد أن هدأت الضحكات أماني تنشد :

«سبحانك كل الأشياء رضيت
سوى الذل وان يوضع قلبي في قفص السلطان
وقنعت أن يكون نصيبي في الدنيا كنصيب الطير
ولكن سبحانك حتى الطير لها أوطان
تعود إليها وأنا ما زلت أطير.

(تعلوا أصواتهم جميعا مع أماني)

(فهذا الوطن الممتد من البحر إلى البحر سجون متلاصقة سجان يمسك سجان).

تصفيق حاد وتصفير وضحك، أماني تنظر بفرح إلى المرح الذي خيم على الجميع رغم حقارة المكان الذي نجلس فيه، تقول لي: « المشكلة بدءوا يتعودوا على كل شيء، منتعوّد على الهدم وعلى قطع المي والكهرباء منتعوّد على السجن، منتعوّد ... ليش منتعوّد ؟ ليش مصيرنا نتعوّد ؟ وليش الناس بتشوف انه عادي نتعود ؟ إحنا كلنا حالات مريضة جسدياً، مريضة نفسياً، وينتظرنا مستقبل مريض، وقرار سياسي مريض وملغوم.. مريض بسبب ضغوط سرية لا نعرف عنها، ولكن نعاني منها، نضرب، نسجن، نجوع، نموت بسببها. ولكن أثناء ذلك الشباب وأنا راح نشتغل بدنا نساعد لأنه إحنا محتاجين انه نساعد لكن أصحاب القرار بيقرروا لأنهم يحتاجون لممارسة الألم فينا وفي أجسادنا بسبب ضغوط سرية غير مرئية».

وتختم أماني حديثها وإصبعها الشاهد إلى أعلى: « ويهذي راسك بين يديك بشيء يوجع مثل طنين الصمت، ويشارك الصمت كذلك بالهذيان».

|

امرأة توقف كويفا تعانقها بحرارة، تمسك بيدها تقول لها: « نامي عندنا الليلة يا كويفا! ترد كويفا عليها بالعربية: يمكن، مش عارفة !».

تودعها المرأة ثم تواصل كويفا حديثها: « كان الطعام قليل في المقاطعة لكن ليس بندرة الطعام التي عانى منها أهالي مخيم جنين. هنا كان الناس يجوعون لأيام ولا أحد يعرف عن ذلك، سجنوهم في بيوتهم وفي المدارس، ناموا دون غطاء والشباب سهروا ليالي راكعين مربوطي الأيدي إلى الخلف عراة، كنت اشعر أن جسدي سُجِن في المقاطعة لكن روحي كانت هنا مع أهالي المخيم، حاولت الخروج بعد اليوم الثالث لأني أحسست أن هناك لعبة يلعبونها يحاصرون المقاطعة، ولكنهم يقتلون أهالي المخيم، كنت أفكر في الناس في أصدقائي في جمال الذي قتلوه، ليتني كنت هنا لأحميه بجسدي لأن جمال صوت من أصوات فلسطين، صوت مليء بالإنسانية، أنا حزينة لأني كنت شجاعة في المكان الخطأ. أنا لا أخاف الموت أو من الرصاص، لأن الخوف من الموت ومن الرصاص يحد من إمكانية العمل، في أحد الأيام رأيت ثغرة عندما كان الجنود يدخنون السجائر، ركضت، مررت بهم مع علم ابيض وخرجت وسجائرهم ملتصقة بشفاههم، اصطدمت بدبابة، اختبأت وراء سيارة مقلوبة، هددوا بإطلاق النار، ولكن لم يطلقوا النار، وركضت .. ركضت حتى قابلتني سيارة إسعاف أخذوني معهم وخلال يومين كنت في جنين، حيث وجدت أصدقائي قد نزفوا حتى الموت، هذا مؤلم، مؤلم، استمعت إلى قصصهم ... أم ابتعد عنها طفلها راكضاً وضعوا السلاح في فمه وسألوها بأي طريقة تريد أن يقتلوه؟ اشعر بالذنب لأنني لم أكن موجودة هنا وهذا يؤلمني، الشعور بالذنب يؤلمني ويخيفني أكثر من الموت وأكثر من الرصاص، مريم وطفلها نزفوا حتى الموت، حملت طفل مريم وركضت نحو المستشفى ولكنه مات ... ومات جزء مني ومن الصعب أن استمر دون هذا الجزء الذي مات معهم.

لو كنت هنا لما اختبأت كالفأر، لتجولت وصرخت قضية ايرلندا وفلسطين متشابهتان إيرلندا أول مستعمرة بريطانية وفلسطين آخر مستعمرة بريطانية، وفقد الكثير بسبب بريطانيا أولاً والصمت العالمي ثانياً».

هل تحبين الحياة يا كويفا؟

«نعم كثيراً أنا ابحث عن الحياة الحقيقية والبحث عن الحرية موجود هنا كما هو موجود في المكسيك وفي غواتيمالا، وأنا أحب أهلي وأهلي يحبونني، ولكن امتحان هذه الحياة هو الأصعب، أن استمر في العيش مع التفكير أن العديد من أصدقائي ماتوا. لكن عزائي أنهم ماتوا من اجل الحرية».

عندما التقيت مع توم والد كويفا في جنيف حكى لي قصة عن كويفا في زيمبابوي، عادت من المدرسة في اليوم الأول وقالت لوالدها أنها تعرفت على صديق لطيف جداً وأحبته، سألها إذا كان اسود أم ابيض؟ نظرت إليه محاولة التذكر وقالت: «لا ادري! ولكن سأتحقق من ذلك في الغد، وسأقول لك». وعندما لاحظ دهشتي قال لي: «هكذا يجب أن نكون». حكيت لكويفا هذه الحادثة وسألتها إذا كانت تذكرها؟ .

«لا ادري إذا كانت الحادثة معي أو مع أخي الأصغر، ولكن نحن جميعاً هكذا وهذا بفضل والدي وتربيته لنا».

هل تعرفت على الإسرائيليين ؟

«تعرفت على مجموعة من حركة السلام، التقيت بناس طيبين ولكن أحياناً مخيبين للآمال لأنهم افتقدوا الحب، إنهم فقط حركة للسلام دون حب، أنها تشبه الحزب السياسي ولكن السلام لا تصنعه السياسة، السلام يُصنع بالحب لأن الحب هو الدليل على الرغبة الصادقة وللأسف لا يمكن أن نصنع الحب فالحب جزء منا، يجتاحنا ويؤثر على قرارنا وعلى أعمالنا أنا متأكدة لو عرف هؤلاء الحب للآخر لضاعت الفروقات والاختلافات واقتربت الآراء».

«لكن استبدلوا الحب بالعولمة يخلطون المعاناة بالمادة والربح الذي يزيل الحدود وهم مقتنعون بذلك أن لهم قلوب مصنوعة من الصلب والمادة وهذا شيء مخيف ... كيف سيزيلون الفقر أو حتى كيف يقللوا منه؟.»

«هناك جنود أعطوا بعض الحلوى للأطفال وهذه القصة يرددها الناس، ويحبون إعادتها لأنها تعطيهم الأمل ليؤكدوا لأنفسهم بان الوضع غير مظلم تماماً. هؤلاء الجنود هم ذاتهم الذين تركوا آباء هؤلاء الأطفال وأشقائهم ينزفون حتى الموت».

سرنا بمحاذاة شيء يشبه الخيمة .. رُفِعت على عصي مكانس وقطع حديد أُستُخرِجتْ من البيوت المدمرة، أما القماش فكان عبارة عن بقايا حرامات مخططة ومربعة، جلس تحتها رَجل في الخمسين من عمره افترش فراشاً أخفى لونه الغبار الذي يصله من الردم المتكوم على بعضه، ومن سيارات الشحن التي تنقل حطام البيوت، وكلما مرت سيارة شحن يتغطى بالغبار حتى أذنيه .

تعجبت من إصراره على التواجد هنا، وسط هذه القذارة والرائحة المتعفنة المنبعثة من جثث

غير مرئية ولكن يثبت وجودها رائحة رهيبة، سألت كويفا من هو؟ قالت :« يحيى الهندي».

اقتربنا منه دعانا للجلوس وقذف لنا بفرشة كانت يوما من الأيام برتقالية اللون مصنوعة من الإسفنج الرقيق، جلست أنا وكويفا متقابلتين، سألته: لماذا أنت هنا؟

«شايفة هذه الطريق وين السيارة بتمرق كان بيتي، طلعنا من البيت مش واعيين على حالنا تركت فيه الخمسة وعشرين ألف دولار، حيلتي وشغل عمري وحياتي ... وقاعد احرسهم لما يصل دور بيتي وينبشوه بلكي على الله لقيتهم، ما أنت عارفة، شغل فش ! ولا راح يصير، ولادي مشردين هون وهون إذا ما لاقيتهم الله يعوض شو بدي اعمل؟ نصيبي هيك !».

كان الرجل يعرف كويفا فقال: « آه والله لو بيدي (لو أستطيع) غير اطلعلها جواز سفر فلسطيني، وأجوّزها لفلسطيني، كويفا لطيفة وطيبة وقلبها مغارة حب، قديش اسمها صعب لكنه قد ما بحبها صرت اعرف ارده (كويفا تضحك) أو بنزوجها أبو عمار!».

كويفا تعترض: « لأ، ابداً مش ممكن، أنا بدي أتجوّز الحاج علي لما يطلع من السجن « (في هذه الأثناء تجمهر حولنا بعض الأطفال وشاركونا ضحكنا).

تابعت كويفا بالإنجليزية – «الناس هنا بسطاء يحبون في بساطة، يستضيفون في بساطة وهم شجعان، لا يحبونني كشخص كويفا، يحبونني لأنني معهم أعيش تعبهم ... الناس متعبة هنا، كل يوم يسقط شهيد، لا يوجد أمان في البيت ولا في المدرسة، لا يوجد مكان آمن يحميهم من الموت لذا ترين تلك الاستهانة تقريباً بالموت لأنه يصاحبهم في كل مكان وهذا شيء مرعب ... جرائم حرب ترتكب واتفاقيات جنيف تخترق والمجتمع الدولي عاجز عن قول كلمة كفاية». «إسرائيل طحنت مخيم جنين وطحنت الشعب الفلسطيني وسوتهم بالأرض، مثل هذا الدمار ... سوتهم بالأرض، ولا أحد يقول لا ... لا أحد يقول كفى، كفى».

«ذات يوم ادعيت أنني صحفية وسالتُ احد الجنود عن عدد الضحايا في جنين فقال: « ثلاثة وعشرون إسرائيليا واثنان وخمسون فلسطينيا». قلت له: ولكن عدد الجنازات التي رأيتها يزيد عن هذا الرقم! فقال: «يقومون بجنازات مزيفة » ثم طلب مني أوراقي وعندما أخرجت جوازي الايرلندي، قال لهذا أنت لا تخافين منهم لأنك ايرلندية ... إرهابية مثلهم .. واحتجزوني لمدة تسع ساعات».

وماذا بعد؟ هل ستبقين هنا؟ (سألتها)

«لن أعود الآن لأنني اشعر أنهم سيجتاحون بلاطة وجنين مرة أخرى وأخرى وهذه المرة سأكون هنا، لكن عندما اطمأن سأعود إلى ايرلندا ، اعتقد أن ايرلندا ستسمعني لان هناك شعب مر بنفس الظروف، ومهم جداً أن أتحدث مع الايرلنديين لأنهم يتواجدون في كل مكان في الولايات المتحدة، وهم لم ينسوا العذاب والجوع أو الفقر الذي عانوه بسبب الاحتلال البريطاني ... ولدي أمل في شعبي الأيرلندي.»

ودّعنا يحيى وتركناه في خيمته يحمي الخمس وعشرين ألف دولار وأمله بالعثور عليها، واخترقنا أشلاء حارة الحواشين المدمرة عن بكرة أبيها، صعدنا على أكوام الحديد والأسمنت ودسنا

على عجلات مكسورة، سرنا نحو حافة الحارة، أشارت كويفا لبيت وقالت: « بيت أم صبحي » لوّحت لنا شابة من البيت ودعتنا إلى بيتهم المشرف على حارة الدمار.

أم صبحي من حيفا رحلت عنها في حرب ٤٨، كان والدها يعمل في شركة «شل» (شركة نفط قرب حيفا) تقول عندما رحلت عن بيتها كان عمرها سبع سنوات وهي تعتقد أنها الآن في الخامسة والستين، قلت أنها في الستين، فقط. فاستغربت وقالت إن شعرها ابيض بالكامل، ولم يسرُّها الأمر الذي زاد من استغرابي فسألتها عن السبب. قالت: « ما سعدت بيوم واحد في عمري ... من يوم ما تركنا بلد الشيخ جنب حيفا واجينا على جنين، وبعدين رحنا على عمان، لاقيناهم ناصبين للناس خيام ورجعنا وما قبلنا نعيش بالخيام، رجعنا على سيلة الظهر، بتنا ليلتين عند ناس ورحنا على قباطيا وبعدين على مخيم الشهدا، مش على المثلث لقدام شوي، بقوا العراقية والسوريين مرابطين هناك بأيام حرب ٤٨، وبعدين يا حبيبتي أثلجت هناك علينا الدنيا ثلج كثير حتى اسمها لليوم سنة الثلجة الكبيرة، عاد رحنا على جنين وحطُونا في الجامع (المسجد) ردّوا حمّلونا على مخيم نور شمس جنب طولكرم، أبوي و أمي ماتوا هناك ... جوّزوني عمري كان خمسة عشر سنة لواحد زلمة (رجل) كبير كان عمره ثلاثين سنة، جابني هان، كان هان محطة ترين، حطونا فيها وسموها مخيم، وعشان كان جنب جنين سموه مخيم جنين، كان عنّا خشتين (تخشيبتان) وصرت أنا وأبو صبحي نشتغل بالخضرا، خلفت ولدين وعشر بنات راح منهن أربعة، وهاي دار الزمن يا بنيتي وعادوا اجو اليهود وقعدوا هون في الدار، كان لايذين (محتمين) فيها ناس من الحارة اللي شفتيها مدمرة، كان يحتمي هون ستة وثلاثين شخص واجوا الجنود، طبوا علينا وعليهم، وحطونا في غرفة المطبخ، على بعض، والله تسعة أيام سكروا علينا وحشاك (أي دون المقام) إذا بدو الواحد يطلع على الحمام ندق لهم يمشوا ورانا بالسلاح ويخلوا الباب مشقوق عشان ما نساوي شي، كان عنا شوال رز وزمان كان ابني يتاجر بصحون الورق، وأقول له يامه من شان الله شوفلك صرفة بكوم هالصحون، ابداً لا يرد ولا يصد، عاد شوفي والله استعملناهم بالتسع أيام».

ابنة أم صبحي تقول ضاحكة لكي تقاطع والدتها: «كان في راس ملفوف...».

لكن والدتها سدّت عليها المحاولة بنظرة كالسيف جعلت ضحكة البنت تتراجع إلى حلقها واحترقت شوقاً لمعرفة ما هي قصة الملفوف ولكن نظرة أم صبحي الحادة جعلتني أتراجع.

وأكملت أم صبحي الحديث: «بعد تسعة أيام طلعوا من عنا ورحنا سلمنا حالنا في الجمعية جنب المدرسة كان حوالي ألف، ألفين شخص، فصلونا عن الشباب، شلحوهم بناطيلهم وقالوا ديروا ظهوركم فكرنا بدهم يرشونا زي ما رشونا في الثمانية واربعين، لكن الله ستر وحط بقلبهم رحمة، وبعدين هوّدنا على المقاطعة (مقاطعة جنين) قعدنا وقعدنا، بعدين قلنا أي هي طويلة، ظلينا نازلين لتحت، وصلنا على روضة ومخيطة فيها كان دكاترة، عشونا سردين ومرتديلا، كنا ميتين من الجوع، قعدنا هناك خمستعشر يوم، كنا ننام إجرين على روس، لما صاروا يطخوا طلعنا » ابنة أم صبحي تقول: « ما هو الحق على الأولاد صاروا يقاهروا فيهم ويرفعوا علامات النصر»، أم

صبحي تتابع بلا اهتمام لما قالته ابنتها: «بعدين سمعنا انه عرب الثمانية وأربعين بيجيبوا أكل على الجمعية، ما قصّروا، وما وقفت عن ذكر الله، أقول يا الله أشفق علينا، امشي والله شاهد أشوف هالاميْات (الأمهات) يسألن عن أولادهن، هذيك تقولي: «مشفتيش خديجة ؟» وهاي: «ما شفتيش رشيد وعايشة؟» .. عاودنا أنا و أبو احمد رجعنا على الدار وقولنا هاي إحنا هون واذا نصيبنا نموت بنموت شو منعمل؟»

صعدت مع ابنة أم صبحي إلى الطابق الثاني والثالث لكي تريني الدمار الذي ألحقوه بشقق أشقائها، بدت الغرف وكأنها مهجورة منذ سنوات إذ حط الغبار في كل مكان وبدا الأثاث آيلا للسقوط. نظرت من شباك الطابق الثالث رأيت حفرة خمسة آلاف منزل تهدمت فوق الأجساد وفوق الممتلكات، قالت لي ابنة أم صبحي أنهم كانوا يبولون على الثياب وعلى الشراشف، الرائحة لا تطاق، كنا نهرب للخارج للتنفس وهناك تطاردهم رائحة أخرى ... رائحة الأجساد المتعفنة. ولكن ما زلت احترق فضولاً لمعرفة ما هي قصة الملفوف فسألتها عن القصة، قالت ضاحكة: وقد نسي وجهها الهم: «هاذا أبوي كان جايب راس ملفوف يوم قبل الاجتياح عاد وأجا ووزع علينا راس الملفوف وكل واحد طلعلوا ورقة ويا دوب، ولكن الملفوف اشتغل شغله بها البطون وهات يا غاز هون وغاز هناك .. عاد شو نتأفف، قسمنا حالنا النسوان الكبار في زاوية، وإحنا البنات في زاوية، ونصير نقول للختايرة أنتم روائحكم أكثر من روايحنا .. عاد هم يصيروا يدافعوا عن حالهم وإحنا نضحك ونضحك والجنود يصيروا يطبّلوا (يدقوا) علينا عشان نسكت، وإحنا مش قادرين، فلت علينا الغاز والضحك، وهذاك ابن عمتي يقول: « ولقد أطلقوا على أهالي جنين قنابل غازية مسيلة للضحك والدموع ... وإحنا تقطعت بطوننا من الضحك، وكل ما ييجي جندي يصيح علينا يزيد ضحكنا بزيادة والله رحنا نموت و إحنا نضحك» – تتلذذ لذة المسرور وتضع يدها على بطنها من الضحك.

نزلت من الطابق العلوي ووجدت أم صبحي تتحدث مع كويفا عن » ثورة « ابنتها البكر التي ذهبت لعمان مع أبو صبحي للعلاج هناك. كويفا تقول لي أن ثورة تعمل قابلة ... وكانت تمشي وراء الجنود وتحاول التقاط الأعضاء التناسلية وتخفيها لكي لا يشاهدها أحد لان هذه عورة، وثورة وجدت جسد طفل ووضعته في صندوق أخفته على السطح إلى أن خرج الجنود وذهبت لتدفنه لأنه ممنوع دفن الموتى في البداية.

نستأذن من أم صبحي التي تقبلني بحرارة وتقول: « أنت ريحتك فيها أهلي، مش عارفة ليش، وكويفا هي الرمق الطيب اللي منبل ريقنا فيه» تدمع عيناها تلوح لنا ونذهب لنخترق زوابع من الغبار.

نذهب إلى زيارة بيت أم قصي وأم شادي، أم شادي جلست أمام بيتها على كرسي خشبي، تقف أم شادي باسمة تفتح ذراعيها لاحتضان كويفا التي لم تتردد في الارتماء في حضن طري دافئ. جلسنا في بيت نظيف، مغرق في نظافتة حتى التناقض بما يحيط به من دمار وغبار ورائحة وضجيج. جلست عند حافة الشباك، كانت صخرة بلاط تربض في وسط ساحة الدار

الصغيرة. في فجوة في وسطها نبت النعناع. قالت أم قصي: « إن شاء الله الأحوال بتمرق و منعمر هون ومنقيم (نزيل) هذه البلاطة من هون».

قلت لها : أنها جميلة. تضحك وتقول :« نْسَكِن البلاط وإحنا وين نروح؟ ».

تسمعنا جارتها تطل من فوقنا تماماً وتقول :« تبني لشو؟ للاجتياح؟ ».

أم قصي تحيي الجارة وترفع يدها إلى السماء مستهينة وتقول: «هذه هي الدنيا! »

نعود ونجلس مقابل أم شادي التي تقول: «والله إحنا ما هوَّدوش تَلانا (أي لم يأتوا ناحيتنا) بس شو طبو علينا خمس عيَل (عائلات) ننام ونوكل ونشرب مع بعض شو بدنا نعمل؟ حتى نقول خلونا ننام مع الناس أحسنَ ما نموت لحالنا ...أنا أولادي الثلاثة اختفوا بالاجتياح بعدين عرفنا انه اثنين منهم انحبسوا والثالث معرفناش له اثر، بعد كم أسبوع شادي راجع».

نشرب القهوة وأم شادي تقنعني أن اذهب واغسل وجهي ويدي واسرح شعري ثم تضيف ضاحكة :« شكلك كأنك طالعة من مغارة في الحواشين».

اذهب معها اسرح شعري اغسل وجهي ونودعها وعند خروجنا تسأل أم شادي كويفا أن تأتي لتنام عندها الليلة ... كويفا تقول :« يمكن، مش عارفة !»

نتجه نحو حارة الذهب أو جورة الذهب أقول لكويفا: حارة الذهب أم جورة الذهب؟ فترد ضاحكة: «جورة الذهب في حارة الذهب».

في بيت رشدي عبد الخليل يقول لنا رشدي: «ثلاثمائة وستة وخمسون دار، طيب إحنا ثلاث طوابق يعني ثلاث دور بيحسبوها هذه الدار دار واحدة؟ طيب الدار اللي تحتنا مش صالحة للسكن، وفي خلاف على خمسين دار، والعراق بدهم يعوضوا ثلاثمائة دينار ، يعني دور محروقة بيعتبروهاش مدمرة؟ طيب من وين الناس بدها تجيب تصليح أساسات ومنجور ودهان؟» (شاب يتدخل في الحديث) قائلا: «أنا لي دار خلصتها السبت هدوها الثلاثاء، بكيت، كنت بدي (كنت أريد) أتجوز بعد كم أسبوع، امبارح كان عرسي لو ما صار هذا الاجتياح، قال بدهم يعطوني خمسة وعشرين ألف دولار عن الدار، صاحبي إياد أبو فرج أول يوم تجوز كان الاثنين، يوم الثلاثاء الصبح انهد بيته، هو وعروسته تشردوا! قالولهم يروحوا على خيم الأنروا، ماقبلوش يروحوا ... خايفين يروحوا أحسن ما يظلوا هناك مؤبد، هسة قاعد بعمارة الترزي».

«دارنا آخر دار في الحوا شين تلا بيت (قرب بيت) أم صبحي اجو علينا وطلعنا من ورا (من الخلف) وإذا هم قدامنا، أخذونا... أعطيتهم هويتي وقلت لهم أنا بدي أتجوز وعندي شغل، زتوا الهوية، وكلفني اطلع واحدة جديدة ٤٠٠ شيكل، وربطوا ايدينا لورا وقعدنا ليالي وأيام، خمسة أيام، خامس يوم طعمونا شقفة خبزة وزرين بندورة ... قاعدين بهالشمس في معسكر سالم بطلع متين واحد (مائتان) أنا بقيت مع أخوتي الخمسة بس عمنه (لأنه) كان ممنوع نتحرك معرفتش إنهم معانا ... إلا بعد ما زتونا وروحونا التقيت معهم بمخيم رمانة».

رشدي يستعيد حقه في الحديث يقول: « أنا بكيت (كنت) اشتغل بالخضرا من بداية الانتفاضة، وهسه (الآن) كاعد (عاطل عن العمل) مشكلتنا مش الأكل ... في تموين مشكلتنا فش مصاري،

يعني إن طلب مني ولد شيكل معيش أعطيه».
صمت الجميع ، كان إيهاب الصغير يجلس في حضن كويفا ، جلسا على كنبة لونها احمر قان معدة لشخصين، عليها نقوش ذهبية، بدأت الألوان غريبة في مخيم جنين، لا تمت بصلة للناس الذين يستعملونها. رشدي يقطع الصمت ويسأل كويفا : «وين النومة؟» قالت: «عند أم حموده».
سألها عن شيفس مور، التفت اليّ قائلا: « شيفس هي رقم واحد في المخيم، كانت بغياب كويفا قايمة بالواجب تمشي تحت الرصاص حاملة مية وحاملة أكل ولا ترد على الجنود ...» ثم يلتفت لكويفا ويسأل :« من وين هي؟ من راس الحية (الأفعى)؟»
فتقول كويفا: «آه». أسالها ماذا يعني راس الحية؟
فتجيب: « يعني أمريكا »
خرجنا من عند رشدي مع المغيب، سرنا عائدين بمحاذاة الدمار، انتشر الناس على جوانب الطرقات ... ينظرون يهمسون ويحيون كويفا بمحبة. شعرت أن علَيّ الخروج من هذا المكان وفي الحال ودون تأخير، قلت لكويفا اعتقد أني لن أنام هنا ... ذهبت إلى السيارة ووجدت كمال في انتظاري، ناولت كويفا علبة من والدها ... قبلتها، احتضنتني بدفء قالت: « افهم انك لا تريدين البقاء ولكن هؤلاء حكوا لك قصص حياتهم فقط أعيدي حكاياتها ... تواعدنا على الاتصال من رام الله، تركت كويفا أمام جدارين يكونان زاوية كانت لغرفة في الأيام القريبة الماضية، انتشرت صور الشهداء على كل سنتيمتر من الجدارين»
سرنا نحو الخط الأخضر لأنه الطريق الأسهل للخروج من الضفة، وأغلقنا نافذة جهنم. كمال يقول:« أُفْ...!!».
بدت السهول الخضراء على مرمى البصر، أعادت الطمأنينة والهدوء لقلبي، وبدأت اشعر بالجوع...

الخط الأخضر

التقيت بزياد على حاجز بيت لحم، يضحك زياد كالعادة وكأن هموم الدنيا قصة على ورق. كان آخر اتصال لي مع زياد عند بداية حصار بيت لحم، عندما توفي والده ومنعوه من دفنه في المقبرة فاضطروا إلى دفنه في حديقة البيت، ومنذ ذلك الهاتف الحزين لم اسمع منه.
كان ينتظرني في سيارته ماداً يده ملوحاً، بسمته اقرب إلى ضحكة طفل يشعر بالدهشة، بمحاذاة سيارته سار راهب يحمل حقيبة تتبعه عجوز، طلب منه الراهب أن يوصله حتى الحاجز لان حقيبته ثقيلة، وافق زياد محتاراً بين أن يخرج إلى لمقابلتي أو يدعني انتظر حتى يقطع مسافة الخمسمائة متر التي بقيت على الراهب ليلتقي جنود الحواجز، اعتقد انه فضل إيصال الراهب والعجوز لأنه لوح لي أن انتظره دقيقتين.
هذه أول مرة التقي مع زياد في فلسطين وهو لا يختلف كثيراً إذ ما زال يقدم الخدمات لآخر من يطلب والغريب قبل القريب .

عاد زياد قائلاً: «حرام هذا الراهب بعد عليه (ما زال) مشوار بعد الحاجز حتى المحطة»

يحييني بحرارة ويسأل عن الأصدقاء وعن الجمعية التي كان رئيسها في جنيف، حتى اتخذ قراراً فاجأ الجميع بأن يعود للسكن مع زوجته السويسرية في الدوحة على أطراف بيت لحم. وفي عز دين الانتفاضة.

أفادني زياد بالمعلومات الجغرافية والواجبات الشخصية. يقول: « الليلة مشغول، اليوم عنا واجب في الدهيشة، بدي اخذ بخاطر (يقدم العزاء) شاب استشهد. ثم تابع: « الدوحة تتوسط بيت جالا والدهيشة وبيت لحم، هون كل شي حتى التاسعة مساء، بتشوفيش حدا (لا ترين) إلا بمخيم الدهيشة، لأنهم بيجوا بيت جالا وبيت لحم».

«مقابل بيتنا جبل انطون، من تحت تماماً مخيم الدهيشة، على اليمين هناك مستوطنة «افرات» على اليسار هناك مستوطنة «ابو غنيم». كنيسة المهد هذه في الوسط، الميدنة (المئذنة) الثالثة جامع عمر بن الخطاب اللي احترق، يعني إحنا مركز استراتيجي للقصف».

كنا نقف أمام بيت زياد المكون من ثلاثة طوابق. زياد يسكن في الطابق الثاني ويسكن شقيقاه في الباقي، شقيقه الرابع يسكن في بيت العائلة في الدهيشة. مر عجائز توجهوا نحو قبر أبو زياد وقفوا قرأوا الفاتحة ومروا دون أي حوار ما عدا «السلام عليكم».

زياد يقول :« لأنه أبوي إمام البلد، ودفناه بدون جنازة، وبسبب الحصار الناس ما ودعتش، فبيجوا أهل البلد، اللي ما ودع يقرا الفاتحة على روحه. هذا الرجل في الوسط أبو الوليد من بلد اسمها «جراش» احتلُّوا بيته أسبوعين وطردوه منه، ومن بيته قتلوا ولد من المخيم، ايش اسمه يا ربي (يحاول التذكر) ... ابن زكريا .. راح عن بالي اسمه! بس فكروه احمد المغربي المطلوب الأول في الدهيشة، إسرائيل بتحملوا مسؤولية عملية آيات الأخرس. اللي فجرت السوبر ماركت في «كريات يوفيل» وعملية القدس، وعملية ريشون لتسيون اللي أعلنت عنها كتائب شهداء الأقصى».

سرت وزياد نحو الدهيشة التي لا يبعد مدخلها عن الدوحة سوى مائتي متر.

لا حاجة لسؤال زياد عن شيء فهو إذاعة مليئة بالمعلومات وأسماء الأشخاص والأماكن، يتوقف يحيي الشباب والكبار في السن نساء ورجالا ثم يعود ليسرد لي قصة كل زاوية أو شخص في الدهيشة. فيستطرد: « هذه دار صالح أنحكم خمس وعشرين سنة بس قعد خمسة عشر سنة، نسفوا له داره واتهموه بعملية ضرب سيارة عسكرية في ١٩٧٠ لكنه في ١٩٨٥ طلع بتبادل الأسرى، طلع اخوي الكبير صالح وقتها ،وكمان نسفولنا الدار لما سجنوه ورحنا سكنّا في غرفة من غرف الوكالة (الأونروا) كنا سبع أشخاص في غرفة واحدة. عاد لما طلع صالح من السجن أعدنا تعمير البيت في نفس المكان وسكن فيه صالح. في الاجتياح اللي سبق هذا الاجتياح الأخير دخلوا البيت وكسروا الباب، لحسن الحظ مكسروش شي في البيت».

دخلنا بيت صالح دون قرع الباب كنا في وسط الغرفة زياد نادى ليعلن عن وجوده.

«يا أهل الدار !... صالح هاي في معنا ناس».

جلست في غرفة منخفضة السقف مقفلة النوافذ، في إحد الزوايا اتكأت وسائد مطرزة على

صندوق خشبي قديم، على الجدار الأيمن عُلّقت ست صور من الحجم المتوسط في إطارات بيضاء، جميع الصور كانت لصالح، صالح في حقل اخضر، صالح يمشي أمام مئذنة منعزلة، صالح بين رجل و امرأة، صالح في الشارع مع زوجته وابن زياد.

قال زياد: « هذه الصور انتشرت في لوس أنجلوس تايمز .. هذا البيت القديم بيت جدي .. بعدها الدار موجودة، وقتها اخذوا الصحفي على دارنا هناك واجروا معاه مقابلة عن حياته».

يدخل صالح بهدوء يناقض حيوية زياد ويقول بعد السلام: « بتتذكر لما رحت أنا وفدوى وأمجد مع أمي؟ أمي قالت وقتها لما وصلنا البيت من هان طلعوني عروس بس مكانتش البرندا وقتها، بعدين نزلت أمي على الحكورة وراحت تتفرج على الرمان، أخذت من الرمانة فرع وزرعته في الدهيشة، وهي تزرع بكت وقالت: هذا اللّي بقي لنا من الوطن». صالح يتحدث بصوت منخفض مفتون بالماضي ينقل إصبعه على إطار علق على الحائط المقابل: « هذا صدر ثوب أمي وهذه العروق المطرزة اللّي بتزين الثوب الفلسطيني».

سألت صالح عن العمل الذي يمارسه، يرد عنه زياد: « صالح خريج عسقلاني » (أي من سجن عسقلان) لكنه مقدم في الأمن الفلسطيني، والآن مسؤول في العلاقات العامة في محافظة بيت لحم، واخوي إبراهيم مدرس في السعودية، صادق مهندس زراعي. في هذه الفترة كان قد دخل عدد من الأشخاص عندما دخل الشخص الأخير قال زياد: «هذا اخوي مصطفى مدرس في عمّان، لما توفى أبوي فتحنا عزا (عزاء) في عمان عند مصطفى».

مصطفى يحييني ويقول: « أهلا وسهلاً، اسمك على اسم بنت مريم إبراهيم، هاي ثاني مرة بسمع بهذا الاسم». زياد يقول: « في حدا راح يقول للجماعة انه إحنا جايين نوخذ بالخاطر؟ بس هالكيت الكل نازل على الصلاة، بعد الصلاة منروح نعزي فيهم» (زياد تتغير لهجته عندما يتحدث مع اشقائه).

تجمع الجميع، ووقفنا دفعة واحدة، خرجنا من الباب، كان الليل قد حط بظلامه على هيئة شراذم بسبب الأضواء القادمة من الأبواب المتلاصقة والنوافذ. نظرت إلى أعلى رأيت القمر بدراً فارشاً نفسه في سماء دون غيوم، سرت خلفهم وكنت أتابع قمصانهم الملونة لكي لا أضل عنهم .. كنت أحيي الشباب الذين يحييهم زياد، منهم كان خطيب آيات الأخرس، سالت شادي خطيب آيات، هل يمكن أن نلتقي، قال:« لا مانع .. » واتفقنا على موعد في صباح الغد، سرنا في طريق يلعب فيه الأطفال، بعضهم اعتلى دراجة وأصبح يحذر المشاة ليفسحوا الطريق.

خطوات والتقينا سعيد عطا الله عم أحد المنفيين إلى إيطاليا بعد حصار كنيسة المهد، زياد يقول لي: « شو رأيك تميلي عند دار محمد عطا الله، هذا أخوه سعيد محمود استشهد ابنه جاد في المخيم، ضربوا له سيارته في طيارة أباتشي، وابنه الثاني زيد أبعد إلى غزة، أنت فوتي هون على بيته، وأنا راجع بميل عليكي ومنرجع على الدار مع بعض».

لم أمانع كثيراً أولا لأهمية الأشخاص، ثانياً لأن زياد كان محرجاً من ذهابي معهم إلى العزاء، لأنه سيعزي الرجال، وأنا سأندس بين النساء ويجب أن يشرح لكل سائل من أنا ولماذا أنا

هنا.

دخلت إلى بيت محمود وشقيقه سعيد، دخلت الوالدة، أم خالد، ثم الجدة التي لبست السواد ما عدا منديل ملوّن... ثم دخلت أم محمد وأبو محمد دخلا، وجلسا متقاربين، أبو محمد اخرج مسبحته وداعب حباتها، وخيم صمت ثقيل، لم ينطلقوا في الحديث كالعادة، كنت اسأل السؤال فيجيبون على السؤال بكلمة، عندما طال الصمت همس أبو محمد بعد أن أرخى عينيه وقال: «امرنا لله».

أم خالد: «هم بدافعوا عن أنفسهم و إحنا إرهابيين!»، ثم تصمت.

الجدة تقول: «إحنا إذا متنا منروح الجنة» ثم تصمت، دخل زياد بعد نصف ساعة أو حتى اقل ولكني خلتها ساعات. زياد: مرحبا كيف حالكم؟ يبتسم للجميع يحيي الجميع، يسأل عن أحوال الصغار والكبار، الحاجة تسأل: «هالحين (الآن) رجعت على الوطن؟»

تدخل لارا فتاة في الخامسة عشرة مع صور لجاد الشهيد ومحمد المنفي، تريني الصور وتقول: «جاد كان دايماً يروح هو واحمد إسحاق يناموا على القبر ويشوفوا إذا كان على مقاسهم أو صغير».

الجدة التي كانت مترددة في الحديث تشجعت بوجود زياد .. كانت تعبث بذقنها الموشوم أو تضع خصلات من شعرها الذي تضمخ بالحناء تحت منديلها الذي تزين بأزهار حمراء كبيرة ، بعد أن رمشت بعينيها الصغيرتين عدة مرات قالت: «هذه مش النهاية، مش نهاية الحياة لأنه لا يمكن انه تكون نهاية الإنسان تراب، لأنه لو كانت هيك الآخرة معناها مفش عدل، لا يمكن أن نعيش في ظلم مع ظالمين وتكون آخرتنا واحدة! لا بد نوخذ حسابنا من اللي ظلمونا .. لا بد وأن يكون حساب ونوخذ حقنا يعني هم وإحنا في الجنة؟ لا يمكن مستحيل... مستحيل يروح الشهيد سدى، شهيد يدافع عن وطنه».

ما زالت لارا تمسك بصور جاد ومحمد، عندما سكتت الجدة وتأكدت لارا أن الجدة قد تعبت وعادت إلى طبيعتها الصامتة تعبث بذقنها الموشوم. قالت: «هذه صورة جاد هو قال للمصور صورني صورة الشهادة، محمد بحبش الصور، هذه الصورة الوحيدة له كمان هو راح تصور مع كلا شن».

سلام الصغيرة بنت الثماني سنوات التصقت بلارا لتشاهد الصور ثم نظرت إلي بعينين خضراوين واسعتين تتوسطان وجهاً اسمر أحاط به شعر ناعم اسود، أقول لها: ما أجملك يا سلام.

ترد الجدة: «سميناها سلام على اسم السلام من اوسلو .. شوفي وهذا راح أخوها!.. محمد وزيد أبعدوهم، قالوا انه محمد تعبان في إيطاليا .. بكفهش (لا يكفيه) يا حرام لما كان محاصر في كنيسة المهد أربعين يوم على الجوع يا ولدي، ملعقتين أكل ويظلوا مرميين بالأرض من الجوع، أخوه استشهد قبل ما يفوت على الكنيسة».

الأم تقول: «بعشرة أيام، ما لحقنا نخلص العزا (العزاء) إلا صاروا ييجوا يسألوا عن محمد، لما تحاصر ظلينا في العزا ... لكنه في إيطاليا أهون من الشهادة! بس على الأقل منسمع صوته

بالتلفون ... يظل يمه يا حبيبي يقول: أنا بدي آخذك تزوري «ديربان» هالقيت صار اسمها «بيت شيمش» .. بلدي، حلوة كانت، كان عنّا سهل وزرع وغنم، وبقر وجمال، لبن وزبدة، وزيت، وميّه، هالبيارة تظل ملانة (ممتلئة) .. هان ما فش منه!».

ثم نظرت إلى زياد وسألته: « أنت شفت محمد قبل ما يودوه؟».

زياد: « افطرت معاه قبل ما يفوت على الكنيسة بكم يوم بس كنت أنا و محمد هماش وعمر المغربي افطرنا مع بعض».

الأم: « بقى جاد مستشهد؟».

زياد: « آه جاد استشهد في الاجتياح الأول».

الجدة: « محمد لما فات على الكنيسة كان متصاوب، كان معاه عصاتين لما شفنا على التلفزيون بعد ما طلع كان معاه عصا واحدة».

الأم تقول بصوت نائح: « يمه يا حبيبي الله يسهل عليه، الله يطعمني وأكحل عيني بشوفتك، كان نازل وزنه يا حرام بطلع أكثر من عشرة كيلو، من قلة الأكل، بقولولي عنده التهاب في معدته، الله يحنن عليك أولاد الحلال، الله يطعمك ونشوفك بوطنك (تبكي بصمت ثم تستطرد) والله يمه رحت على الكنيسة عشان اشكر الأب اللي حماهم ما خلونيش، بدي ابوس أيده بذكره بصلاتي كل يوم وبطلب من الله يوفقه مع عباده».

لارا تحاول التخفيف عن والدتها وتقول لها: « المهم يمه عايش ..».

الأم: «أربعين يوم يمه لا حمام لا غيار، يقطفوا ورق اللمون (الليمون) يغلوه ويشربوه بدل الأكل يمه يا حبيبي يا رب أنا ولا ظفر منك».

الجدة تحاول ترطيب الجو مواسية كنتها: « خلص يمه ..خلص، والله بيقولوا إيطاليا منيحة في ومي (ماء وظل أي حياة جيدة) وبيقولوا اللي طلعوا وظلوا هان لساتهم (ما زالوا) شاردين بالوعور والجبال، بكره بتصيدوهم وبعدين مالها إيطاليا؟ هو لولا رئيسهم بقولوا عنه مش منيح وبكره (يكره) الإسلام والمسلمين، وبقول عنهم وحوش ومتأخرين، بس زمان الطليان كانوا يحبونا إحنا الفلسطينية، (ثم تضرب على ركبة كنتها) وتقول: يا خايبة بكره بلكي اشتغل وصار معاه شوية مصاري وقطعلك كرت للطيارة ورحتي بالعسى ما ترجعيش علينا..». باءت محاولة الجدة بالتخفيف عن الأم بالفشل.

لارا: « كان الراهب الوحيد اللي يطعمهم أكل، أنا رحت وشفت المغارة وشفت وين اخوي محمد كان».

أشار لي زياد بمجيء وقت الذهاب إلى البيت، ودعت الجميع واقتربت من الجدة التي قالت لي: « قلبي والله حبك . قبلتني قائلة: « سلمي يمه على ولاد الدنيا كلهم». ربتت على ظهري وابتلعنا ليل الدهيشة.

|

كانت الساعة السابعة صباحاً عندما دق جرس الباب، وقفت امرأة بلباس عصري جميل

مستوحى من الثوب المغربي التقليدي ولكن أضيفت إليه لمسات جعلته بقدرة قادر آخر ما قدمته الموضة، تلبس نظارات شمسية سوداء، وأول ما رأتني كشفت عن بسمة عريضة وقالت بألفة ومرح: « أين زياد الخائن؟ » ودخلت على زياد أيقظته، وهي تلعنه كيف وصل منذ اشهر دون أن يزورها .. وعتاب وضحك ومرح وذكريات.

قرع الجرس مرة أخرى وقال زياد: «هذا أكيد شادي! »

هيام تسأل: « مين شادي؟ »

زياد: « شادي خطيب آيات الأخرس».

شادي أطلق لحية قصيرة مهذبة امتدت على وجه شاحب طويل، يرتدي قميصا اسود، جلس قبالة هيام، كنا نجلس حول طاولة المطبخ المستديره. أشعل شادي سيجارة وعزم على زياد بواحدة ... زياد يميل على هيام ويقول: « أيام والله يا هيام.. » ثم ينظر ويقول لي: « زمان لما كان في كل المدرسة أربع أولاد معهم شيكل، كنا إحنا دايرين بالوعور والجبال، نسرق تفاحة من هون شوية عنب من الكروم ».

هيام: «مكناش نقعد في بيوتنا لا تلفزيون ولا راديو، نروح من المدرسة ونروح داشرين ولاد وبنات، اليوم بطلوا البنات زي زمان، صاروا يتحجبوا ».

سألت شادي دون مقدمات: كيف تصف آيات يا شادي؟

شادي: « آيات إنسانة محترمة عندها كبرياء، و إنسانة متدينة».

كان في مشاكل بينكم ؟

«خطبنا من سنة وسبع اشهر، هي أخت أصدقائي، كنا متفاهمين على كل شي، على البيت على الأسرة على أسماء الأطفال، على مستقبلها الدراسي، آيات كانت بتحب تكمل دراستها وأنا كنت أشجعها، كان بدها تدرس صحافة».

شو بتذكر منها أكثر شي؟

«بسمتها، لما تشوفني»

زياد يتدخل: « آيات فاجأت الناس بعمليتها، وتأثروا الناس في وصيتها، لأنها أهدت العملية للشهداء لوجه الله، ولامت الحكام العرب».

ليش عملت العملية برايك يا شادي؟

«بعرفش ليش، مكانش ناقصها شي على صعيد شخصي يعني .. بنت حلوة وناجحة في الدراسة، وأنا بريدها كثير».

مكانش شي غريب في الأيام الأخيرة اللي سبقت العملية؟

«قبل بليلة كنت عندها، كانت جداً طبيعية، تضحك، كانت تمزح، كان ثاني يوم عندها امتحان.. قلت لها بديش أتأخر عشان أنت لازم تدرسي، قالت لي: اقعد، راحت عملت قهوة صبت لي فنجانين. بقولها شو زيادة هالمحبة؟ قالت: أنا بعرف أنت بتحب القهوة، ثاني يوم أنا بكون عند دار القصاص. ... بعدين شفت ابن مطلق ناصر، بقولي: بتعرف مين عمل العملية في

«كريات يوفيل؟» قلت له: لأ، مين؟ قال : آيات ... أنا أكلتها صدمة ... صدمة كبيرة .. شو الدافع؟ مش ناقص عليها شي، صحيح انه عمل مشرف، لكن ليش يا آيات؟» شادي كان يتحدث وكأنه لا يخرج كلمات من فمه فهو يطبق أسنانه، تصل كلماته دون أن يحرك شفتيه، يدخن بشراهة نصف سيجارة، ثم يقول: « شي مميت، شي خانق، الدنيا ماشية كالعادة وأنا فقدت اعز إنسانة عليّ».

زياد يقول: « أنا ابدي اطرح سؤال، نفترض انك التقيت مع الشخص اللي فخّخ آيات، شو بتقوله؟ أنا بسألك لأنك في منتصف المسافة بين فلسطين وبين آيات وأنت في الوسط التقيت مع هذا الشخص شو بتقوله؟».

شادي: «اللي ودًّا آيات، ما ودهاش (أرسلها) غصب عنها (رغماً عنها) هي اللي قالت بِدي، ما حدا جرها، آيات مش ساذجة، لأنه لو جرها، بعدين هي لحالها، معها المتفجرات ممكن ترجع على البيت، هي كان معها القرار الأخير، فبالتالي مفيش ثأر بيني وبين اللي بعثها، لكن برضه بسألوا ليش ما منعها؟».

لو أنت يا شادي كنت مكانه بتمنعها ؟

«طبعاً بمنعها، هذه بنت ممكن تعمل وتناضل بطريقة ثانية، وهذا مش شرط النضال والدفاع عن الوطن، لو أنا عملتها شو هي بدها تعمل؟».

زياد: « هذا الموضوع معقد جداً، بحيرني الجانب النفسي، يعني لما بيجي الشخص وبيقرر وبعدين ما بين القرار ولبس حزام المتفجرات وما بين الوصول للموقع!! في مسافات زمنية ما بين خطوة وخطوة، شو الواحد منهم بيفكر في هذا الوقت؟. يعني أنا في الانتفاضة الأولى كنت مطلوب واليهود طخوا عليّ ثلاث مرات، وكان عندي تصميم بالاستمرار في النضال، لكن كان عندي رغبة في الحياة، عمره ما انتهى الأمل عندي انه أعيش، مش زي ما أنت رايح والنهاية بايدك وانت بتحددها! تيجيك رصاصة شيء آخر .. وتقول لنفسك هذه لحظة النهاية، أنا هذه بفهمهاش تجربتي بالحياة قالت لي ان الحياة جميلة».